شعر
آين دمي
يارائحة
الدردار؟
الدكتور عدنان بوزان

شعر

أيْنَ دَمي،
يا رائحةَ الدِّرْدارِ؟

الدكتور عدنان بوزان

٢٠٠٩

" هذا الديوانُ ليس ما قلتُه... بل ما نجوتُ منه بالكلماتِ."

الإهداء

إلى الذين أحببتُهم... فصرتُ بالكلماتِ أتنفسُ غيابهم.

المحتويات

العنوان	الصفحة
مقدمة	١٢
١- قارئُ الأحزان	١٣
٢- عندما يبكي الخريف	١٧
٣- رجلٌ يُرمِّمُ الجهات	٢٠
٤- ليلةٌ تبحث عن الرحيل	٢٤
٥- مَن أنا	٢٧
٦- كلماتٌ من حياتِستان	٣١
٧- منفيٌّ أنا	٣٤
٨- عيدٌ خارج التقويم	٣٨
٩- هذا العشقُ لا يشبهني	٤٣
١٠- شكراً لكِ	٥٠
١١- هذا الذي يكتبني	٥٣
١٢- سيرةُ صرخةٍ لا تموت	٥٦
١٣- نوروزُ النار	٦٠
١٤- أريد أن أكون	٦٤
١٥- ترتيلٌ أخير للثائر الأحمر	٦٦
١٦- على حدودِ المحو	٧١
١٧- إلى قلبك ينبض الأمل	٧٥
١٨- ماذا بقي من جسدي	٧٨
١٩- هويةٌ تحت الرماد	٨٠
٢٠- أرثيكَ بألمٍ... وحزنٍ صيفيٍّ أصفر يا فرهاد	٨٤
٢١- ضوءُ الفجرِ في عينيكِ	٩٠
٢٢- أُسمّي هذا الحنين وطناً	٩٣
٢٣- لا تتركوا لي قبراً... واتركوا لي الطريق	٩٨
٢٤- الدم... حين يتذكر اسمه	١٠٣
٢٥- أنا عابدُكِ القديم	١٠٦
٢٦- قبل الرحيل	١١١
٢٧- نحن الذين لا نُهزم... بل نُمحى مؤقتاً	١١٥
٢٨- هذا الجرحُ ما زال يناديني	١١٩

٢٩- سرابٌ يكتبني ١٢٣
٣٠- وصايا الظلّ لإيلين ١٢٨
٣١- أشتاقُ إليكِ ١٣٤

مقدمة

ليس هذا ديواناً شعرياً يضاف إلى رفوف اللغة، بقدر ما هو أثرٌ إنسانيٌّ خرج من هشاشة الوجود حين ضاقت به احتمالات الصمت والكلام معاً. إنه ليس مجموعة قصائد، بل سيرةٌ داخلية لما لا يرى، لما يتكون في الأعماق حين يفقد الإنسان يقينه بالعالم، ولا يجد في نفسه ما يكفي ليقف مستقيماً أمامه.

"أَيْنَ دَمِي، يا رائِحَةَ الدِّرْدارِ؟"
ليس عنواناً يزيّن الغلاف، بل شقٌّ مفتوح في الذاكرة، وارتجافةُ سؤالٍ ولد من لحظة انكسار بين ما يتبقى من الإنسان وما يتسرب منه دون أن يدرك. إنه ليس سؤالاً يبحث عن إجابة، بل عن طريقة للبقاء داخل السؤال نفسه، كأن المعنى لم يعد يطلب خارج اللغة، بل في اهتزازها وهي تحاول أن تمسك بما يفلت منها.

هذه القصائد لم تكتب لتقدم كأجوبة، ولا لتقرأ كمعانٍ مستقرة، بل لتعاش كحالاتٍ متحولة من القلق الداخلي. فيها ما يشبه التقطع، وما يشبه الاعتراف المؤجل، وما يشبه محاولة التقاط اللحظة قبل أن تنزلق إلى صمتها النهائي. لذلك فهي لا تسير في خطٍّ مستقيم، بل تتقدم مثل ذاكرةٍ لا تثق بترتيبها، وتعود لتكسر ما ظنته قد اكتمل.

في هذا الديوان لا يستعاد العالم كما هو، بل يستعاد كما يترك أثره في الداخل حين يغيب. الأشياء هنا لا ترى في حضورها، بل في فراغها، في ذلك الصدى الذي يظلّ عالقاً بعد انطفائها، وكأن الحقيقة ليست فيما يحدث، بل فيما يتبقى من حدوثه داخل الإنسان.

القصيدة ليست زينة اللغة، بل جرحها حين تنكشف على حدودها القصوى. هي ليست وصفاً للحياة، بل محاولة للنجاة من كثافتها، لإعادة ترتيب الألم في شكلٍ يسمح له بأن يحتمل، ولو مؤقتاً. فالشعر ليس ما نقوله عن أنفسنا، بل ما يبقى منا حين تفشل اللغة في حمايتنا من انكشافنا الكامل.

هذا الديوان هو محاولةٌ للوقوف على حافة المعنى دون السقوط فيه، وللاقتراب من الغياب دون ادعاء استعادته، وللإصغاء إلى ما لا يقال، لأنه الأكثر حضوراً.

"أَيْنَ دَمِي، يا رائِحَةَ الدِّرْدارِ؟"
سؤالٌ لا يغلق، لأن إغلاقه يعني نهاية الشعر، ولأن بعض الأسئلة لا تطرح لتجاب، بل لتبقي الإنسان حياً داخل اهتزازه، بين ما كان وما لم يعد قادراً على أن يكونه.

وهذا الديوان، في النهاية، ليس ما كتب فقط، بل ما بقي حين انسحبت الكتابة، وتركت خلفها إنساناً يحاول أن يفهم لماذا لا يزال يتكلم.

د. عدنان بوزان

قارئُ الأحزان

ربما قلبي يواكبُ الأحزان..
يحرثُ ترّهاتِ المستحيل
ويمشي على خطواتِ ليلٍ ثقيل
في هذا الزمنِ المستعار
وفي وجوهٍ مستعارة.

لأنني لا أُفرّق بين قنبلةٍ موقوتةٍ
وحبّةِ زيتون
ولا بين طعنةِ خنجرٍ
ودمٍ مسفوح
ولا بين مجزرةٍ ومجزرةٍ أخرى...

إلا بلغةٍ منبوذةٍ
تخترقُ جسدَ قصائدي
كأن الكلماتِ تهرولُ خلف القضبان
تنادي يوماً آتٍ
لا اسم له بعد.

مزخرفٌ بدمِ الأبرياء
ملونٌ بصرخاتِ الأطفال
وبأنينٍ تتلوه حناجرُ الأمهات
كأن الألمَ صار لغةً ثانيةً للوجود.

ربما قلبي يواكبُ الأحزان..
يحرثُ أمواجَ البحار
ويواجهُ عاصفةً لا تستهان
حتى تكتملَ نشوةُ الصباح
ويكحّل القمرُ عينيه
في ليلته الأرجوانية.

أعانقُ الربيعَ بين أهدابِ الفراق

وأحاولُ أن أقتلَ أدواتِ النفي
من قواميس العالم
لأختبئ في أعماقِ ألفِ يتيمٍ
يبحثون عن اسمٍ لا يكسر.

لأنني بدأتُ معركةً من جديد
لا تشبهُ الريحَ العابرة
ولا زوبعةَ الكلابِ الشاردة
ولا ضجيجَ الكلماتِ المتصاعدة
حين تكون حُبلى بآهاتِ اليوم.

ربما تولدُ غداً ولادةً مشاكسة
أو لا تكتملُ ولادتها أصلاً
وربما لم أعد أؤمنُ بالقدرِ المصطنع
أو لأنني لا أرتدي حذاءً قديماً
يمسحُ أثرَ دموعي.

وشفتاي...
تحترقان كحبةِ نخيلٍ
تنتظر المطر ولا يأتي.

***

ربما قلبي يواكبُ الأحزان...
ويمشي في المدنِ التي تعلمتْ
كيف تخفي وجوهها خلف خرائطِ الطوارئ
وكيف تبدل أسماءَ الشوارع
كلما مرّ بها التاريخُ متعباً من نفسه.

أمشي...
وفي يدي وطنٌ صغيرٌ من الغبار
وفي صدري نشرةُ أخبارٍ لا تنتهي
تعلن كلَّ صباحٍ عن موتٍ جديدٍ
بلا جنازةٍ تليق بالمعنى.

هنا ...
لا فرقَ كبيراً بين نشيدٍ يقال للوطن
وصوتِ دبابةٍ يمرّ على فكرةٍ نائمة
ولا بين قصيدةٍ تعلق على جدار الذاكرة
وبين بيانٍ عسكريٍّ يكتب الجغرافيا بالنار.

كلُّ شيءٍ هنا قابلٌ للتأويل:
الحدودُ..
الدمُ..
اللغةُ..
والنجاة.
حتى السماءُ
صارت وثيقةَ عبورٍ مؤقتة
توقع باسم الغياب.

أرى المدنَ تُربّى على الطاعة
وتتعلم كيف تصمتُ بلباقةٍ
حين يطلب منها أن تتذكر فقط
ما لا يزعج السردية.

وأرى طفلاً يركض في الهامش
يحمل ظلَّه كرايةٍ صغيرة
ولا يعرف أن العالمَ
يدار من خلف صورته الناقصة.

كلُّ ما فينا يعاد صياغته:
اللغةُ تفلتر ..
الذاكرةُ تهذب..
والألمُ يسمى "تفصيلاً جانبياً"
في خطابٍ طويلٍ عن السلام.

وأنا...
أكتبُ لأتأكد أنني ما زلتُ أرى

وأني لستُ جزءاً من هذا التوافقِ الكبير
بين النسيانِ والسلطة.

أبحثُ عن وطنٍ لا يحتاج إلى تصريحٍ
ليكون حقيقياً
عن لغةٍ لا تعتقل حين تقول الحقيقة
عن معنى لا يقتل حين يعلن نفسه.

ربما قلبي يواكبُ الأحزان...
الأحزانُ باكيةٌ عاريةٌ ..
لا كإحساسٍ عابر..
بل كنظامِ حياةٍ دقيق.
يُعاد إنتاجه كلَّ يوم
باسم الاستقرار.

لا أحد ينتصر
ولا أحد ينجو تماماً
لكن القصيدة وحدها
تظلّ واقفةً في المكان نفسه:

على حافةِ المعنى..
تكتبُ ما لا يكتب..
وتتركُ الباب مفتوحاً
لجملةٍ لم تكتمل بعد.

عندما يبكي الخريف

عندما يبكي الخريف
يهبطُ الشتاءُ على كتفِ الحنين
ويحزنُ الربيع.
تشرقُ جونيا من بين الضباب

جونيا...
كم كتبتُ إليكِ فاتحةَ الزهر
على صفحاتِ الليلِ الخجول
بنبضاتِ قلبٍ جارح
وبألسنةِ الطيورِ المهاجرة.

فوق فستانكِ الفضفاض
يتراقص الحفيف
رغم حبكِ الثوري
ووجهكِ القرمزي.

تُعدّدين أرخبيلَ حبي
منذ ألوفِ السنين.

جونيا...
شعركِ متفرّدٌ
كغَيناءِ طوبى
وعيناكِ حورٌ
ترسمان على وسادتي
لوحةً سريالية.

جونيا...
لا تطرقي سنديانةَ حبي
فقسوةُ سلاسلِ التعذيب
تلفني ..
تفتتني ..

وتقسمني.

ما زال حبي مشاعاً
وما زالت الحجارةُ بلا هوية
وما زال القدرُ معلقاً بأفواهِ الزمن
وما زالت قضيتي دماً لا ينتهي.

ودموعُ الأطفال
تختبئ في أحداقهم
خلف خطواتِ الليلِ الثقيل
وشجرةُ الزيتون
تقفُ في وجه المدفعية.

ما زالت أجراسُ الكنائس ترنّ..
ولا أدري
لماذا أتذكرُ مئذنةَ بلالِ الحبشي
في ليلٍ يثقبه حفيفُ الشجر.

جونيا...
أأمسحُ من عينيكِ الكحلَ الكوردي
حين يتبعثرُ على خدودكِ الوردية؟

أيمزّقُ صفحاتِ آهاتي
ويبعثرُ أوراقي المملّة؟

أم أرسمُ – تدمريةَ العينين –
فوق آهاتِ حلبجة
وويلاتِ قامشلي وعفرين
وعلى ضفافِ آراس وخابور؟

إياكِ...
إياكِ أن تلمسي جدرانَ كوباني القديمة
فجدرانُها كأربيل
كوجهِ الرغيف

في عيونِ الجائعين.

ولا أدري
لماذا أتذكرُ في تلك الصباحاتِ المستنفرة
جياعَ الأيتام ..
والأرامل ..
وخارطةَ الوطنِ الجريح
محفورةً في الملامح:

آمِد...
روشن...
شيرين...

جونيا...
لا تسأليني من بقايا الروح
ولا من رمادِ الحياة.

ما هذه الرائحة
التي تفوح من غبارِ الآهات؟

أهي رائحةُ الكولونيا
والكريستال؟
أم هي...
رائحةُ دمِ الأبرياء؟

رجلٌ يُرمِّمُ الجهات

عندما تتعبُ الجهاتُ من نفسها
وتخلعُ المدنُ أسماءَها عند أبوابِ المساء
أقفُ وحيداً
كآخرِ شاهدٍ على ما لم يكتب.

أحملُ وجهي
كخريطةٍ ناقصة ..
وأمشي...
كأن الطريقَ يتعلم من قدميَّ
كيف ينجو من المعنى.

لا أسألُ: من أنا؟
فالأسئلةُ القديمةُ
تعبت من تكرار وجهي
لكنني أعرفُ أنني
لستُ هذا الاسمَ المعلق
على أوراقِ العابرين.

أنا...
ما تبقى من صوتٍ
لم يجد جداراً ليصطدم به
ما تبقى من وطنٍ
حين تفرّقَ بين ذاكرةٍ وخبرٍ عاجل.

رأيتُ المدنَ
تُربّى على الطاعة
والأرصفةَ
تحفظُ أسماءَ الجنود أكثرَ
مما تحفظُ أسماءَ الأطفال
ورأيتُ النوافذَ
تُغمضُ أعينها

كي لا ترى ما يحدث في الداخل.

ومع ذلك...
كنتُ أكتب.

أكتبُ
لأؤجّلَ سقوطي في الصمت
لأقول إنني ما زلتُ هنا

أكتبُ...
كي لا يبتلعني الصمتُ دفعةً واحدة
كي أتركَ ظلي
معلقاً على حافةِ الصوت

وأدلَّ على نفسي
بأثرٍ خفيفٍ
يشبهني...
ثم يختفي.

فـ"هنا"
لم تعد مكاناً
بل ندبةً
تتذكرني
كلما مررتُ بها.

أحببتُ...
لا امرأةً بعينها
بل فكرةَ أن يكون للحبِّ
ظلٌّ يحميه من القتل.

أحببتُ
كما يحبُّ المنفيُّ
حقيبةً فارغة
يضعُ فيها احتمالاتِ العودة.

وفي عينيَّ
تمرّ البلادُ
كحلمٍ متقطع
أرى الزيتونَ
واقفاً في وجه الريح
وأرى طفلاً
يرسمُ وطناً
بأصابعَ ملوثةٍ بالتراب.

أقول:
هذا أنا...
رجلٌ يتقاسمُ مع الخسارة
خبزَ النهار
ويقتسمُ مع الليل
سؤالاً لا ينام.

رجلٌ...
كلما حاول أن يكون واضحاً
تكسّرتْ فيه اللغة
وعادَ إلى نفسه
كغريبٍ لا يعرف الباب.

فيا أيتها الجهاتُ
التي فقدتْ بوصلتها
علميني
كيف أكون أقلَّ انكساراً
كيف أقولُ "لا"
دون أن أخافَ من صداها.

علميني
كيف أحبّ هذا العالم
دون أن أُسامحه

وكيف أكتب
دون أن أُجمّل الجرح.

أنا لا أبحثُ عن خلاص
بل عن معنى
يستحقّ أن أضيعَ من أجله.

أقفُ بين نهرينِ بلا اسم
لا أعبرُ...
ولا أعود

كأنني حجرٌ
تعلمَ من الماءِ
كيف يبقى
دون أن يصل.

رجلاً
يُرمِّمُ الجهاتِ
بقصيدة ..
ويتركُ البابَ مفتوحاً
لريحٍ
قد تأتي...
أو لا تأتي.

ليلةٌ تبحث عن الرحيل

بحثتُ عنكِ يا حبيبتي ...
كأنني أبحثُ عن اسمي في الغيم
عن وجهي الذي سقط من مرآةِ الوقت
عن ظلي الذي تأخر عني في الممرات القديمة
حيث تتعلم الأشياءُ كيف تنسى بصمت.

بحثتُ عنكِ ..
في كلِّ زمانٍ هرِم ..
في الأزمنة التي فقدت قدرتها على الوقوف
وفي الأمكنة التي نسيت لماذا وجدت
بين أوراقِ همومي
وفي وجودي غير المكتمل
وبين أقلامٍ حزينة
تكتبُ ما لا يجرؤ القلب على البوح به.

بحثتُ عنكِ ..
بين رسائلِ العشّاق
حيث يُكتب الحبُّ كوداعٍ مؤجَّل
وحيث اللقاءُ
فكرةٌ لا تكتمل.

وعبر سطورٍ عابرة
وكلماتٍ تمر كالغرباء
ووجودٍ يتسرب من بين أصابعي
كالماء حين ينسى شكل الإناء.

كنتُ أراكِ في كلِّ شيءٍ ولا أراكِ:
في ارتجافةِ الضوء على الزجاج
في ارتباكِ الطيور حين تغير اتجاهها
وفي صمتِ الجدران
حين تُجبر على الإصغاء.

بحثتُ عنكِ في أرضِ أحلامي
لكن الأرض كانت تمشي بعيداً عن نفسها
وفي اصفرارِ أوراق الخريف
كأن الزمن يخلع لونه طبقةً بعد أخرى
كي لا يتهم بالحياة.

وفي أسوارِ مدينتي الضائعة
رأيتُ المدنَ ..
تتعلم كيف تغلق أبوابها على ذاكرتها
وكيف تنسى أسماءَ من مروا بها
دون أن يستأذنوا من الغياب.

وقريتي اليتيمة...
كانت تقفُ على حافةِ بكائها
تعد الأطفال كأنهم نجومٌ سقطت من السماء
وتنتظرُ عودةَ شيءٍ
لا اسم له.

بحثتُ عنكِ ..
بين حسراتِ الأطفال
وفي أولِ أيار
حين يتعلمُ الربيعُ كيف يكسر
وكيف تزهرُ الأرضُ على عجلٍ
ثم تنطفئ.

وفي ليلةِ القدر
دخلتُ الغياب ..
كما يدخلُ العابدُ صلاةً طويلة
لكنني لم أسمع سوى صدى خطاي
كأن الكون يعيد عليّ وحدتي
بصوتٍ يشبه القداسة.
بحثتُ عنكِ بين الغياهب
بين رمقِ الحياة حين يتردد

بين الديانات الثلاث
كأنها كتبٌ تبحث عن قارئٍ واحدٍ ضائع
بين الإنجيل والقرآن ..
والتوراة والزبور ..
كأن الحقيقة تتوزع كي لا تمسك.

وفي كلِّ نصٍّ قرأته
كان الغياب يكتب الحاشية نفسها:
"ليس هنا..."

حتى النار...
لم تكن ناراً كاملة
بل أثرَ احتراقٍ
نسيَ أن يكتمل.

بحثتُ عنكِ ..
في ما تبقى من العالم
في الأزقة التي لم تسمَّ بعد
وفي الوقت الذي لم يولد
وفي اللغة حين تتعثر بنفسها.

لكنني...
لم أجدكِ.

وجدتُ الدخان فقط
يتدرب على هيئة السماء
وناراً ..
تتذكر أنها كانت شيئاً يشبه الحب
قبل أن تصير رماداً.

وأخيراً ...
أدركتُ أنني لم أكن أبحثُ عنكِ وحدكِ
بل كنتُ أبحثُ عني
حين كنتُ أستطيع أن أكون كاملاً.

مَن أنا

مَن أنا...
ولِمَ تسألين عني؟
منذُ الأعوامِ اليابسة
وأنا حروفُكِ الثمانية
المحترقة..

من جناحيكِ الأربعة المتكسّرة
ومن لغتِكِ التي أُرهِقها العقمُ
فصارت سؤالاً بلا جواب.

أنا من حسراتِ "ممو وزين"
ومن خجلِ "سيامند"
ومن زرادشتٍ الذي ضلَّ نبوءته
في ضجيجِ العالم.

أنا من صمودِ الحجر ..
ومن غرورِكِ العابر
ومن سوادِ الاستفهامات
المعلقة على الورق
تبحث عن قريتي (Welat)
عن بيتي المهجور.

أنا...
بلدٌ يبحثُ عن فجره
وحطامُ سفينةِ جودي
حين قاومتِ الرياحَ
ولم تنجُ تماماً.

أنا فرحةُ الأطفالِ في يومِ العيد
ونشوةُ ليلتكِ الأرجوانية
على فراشِ اللوم

وبكاءُ أمي
حين يضيعُ اسمي في السفر.

مَن أنا...

ولدتُ حيثُ ولد زرادشت
بين ميديا والميتانيين
وخرجتُ من صمتِ الشجر
حين كانت الخرائطُ
لا تزال تتعلم أسماءها.

ولدتُ دون يقين
مع الشرارةِ الأولى
حين توهجت فوق القمم
ذاكرةُ النار.

من أنا...
أنا قارورةُ عطركِ الباريسي
حين يمرّ بي الحنين
وأصيرُ ما تشتهيه الذاكرة
من غيابٍ جميل.

مَن أنا...
أنا الاسمُ الذي لم يسمح له أن يكتمل
والصوتُ الذي تعلم الكلام في المنفى
قبل أن يتعلم الاعتراف بالحدود.

أنا الغبارُ الذي خرج من خرائطكم
حين حاولتِ الخرائطُ أن تنكر وجهي
والخطوةُ التي بقيت معلقة
بين وطنٍ يراد له أن يمحى
وذاكرةٍ ترفضُ التنازل.

أنا ظلُّ الأرضِ حين تُجرّ إلى الصمت

وصوتُها حين تنفجر تحت ثقل الأسئلة
ولا تجد من ينصت.

أنا الذين مروا من هنا ولم يعودوا
وأنا الذين عادوا
لكنهم لم يجدوا أنفسهم كما تركوها.

أنا صدى السجون
حين تتعلم الجدرانُ النطقَ بأسماء أصحابها
وأنا ارتجافةُ الأمّ
حين يعاد إليها ابنها
باسمٍ لا يشبهه.

أنا من رمادِ القرى حين تنسى
ومن ترابِ البيوت التي تعلمت الوقوف
ثم سقطت دون ضجيج.

أنا الوجعُ الذي لم يترجم بعد
والحقيقةُ التي خافت من لغتكم
فاختبأت في صدور الطيور.

أنا من حليبِ الأمهات
حين يحول إلى صبر
ومن خبزِ الجوعى
حين يعاد تعريفه سياسياً.

أنا الوجوهُ التي لم تظهر في نشراتكم
والأسماءُ التي شطبتها يدُ التاريخ
لكنها عادت من الحبر
أشدَّ اشتعالاً.

أنا الحدودُ حين تتعب من كونها حدوداً
وأنا الجسرُ الذي تعلم أن يرفض العبور
كي لا ينسى من مرّ عليه.

أنا من هذا الشرقِ حين يجبر على أن يحلم
ومن الحلم حين يجبر على أن يحاكم.

أنا صرخةُ الحجر حين يرجم بالحكايات
وأنا حنجرةُ التراب حين يرفض الصمت.

من أنا...
أنا الذي لا يقاس بالخرائط
ولا يختصر في نشرات الأخبار
ولا يحاصر في تعريفٍ جاهز.

بل أنا السؤالُ الذي كلما حاولتم إغلاقه
انفجر في وجوهكم كقصيدة.

وأنا...
ما زلتُ أكتب نفسي
من تحت الركام
كأن اللغة وحدها
آخر أشكال المقاومة.

أنا قارورةُ عطركِ الباريسي
حين تسقط على أرضٍ محروقة
فتتحول الرائحة
إلى ذاكرةٍ تقاتل النسيان.

أنا من أنا...
أنا الذي إذا انتهى
بدأ أكثر.

كلماتٌ من حياتِستان

لا...
ليست الحياةُ هكذا
كإشاراتِ استفهامٍ معلقة
كنملةٍ مريضةٍ تحت قدمِ اللئيم
كمظلومين تحت جزمةِ السفّاح
كأدواتِ نفيٍ تتعلمُ الانكسار
وكشعرٍ زنجيٍّ مُنهكٍ في هوامشِ الضوء.

لا...
لا حقدَ للقرامطةِ على صفحاتِ الإحباط
ولا كذبَ للتاريخِ على أفواهِ المغارات
ولا مغامرةَ مجهولةً تنتجُ بطلَ الزمان.

لا...
ليست الحياةُ هكذا
عاريةً كجسدِ النار
حافيةً كأقدامِ الكلمات
قابعةً كظلِّ السؤال
شاهقةً كرأسِ التوءَمين.

إياك...
أن تلمسها
إنها قنبلةٌ نيوجرسية
تفتّتُ براءةَ الإنسان.

لا...
ليست الحياةُ هكذا
مسمومةً كسيفِ سلطان
ولا صامدةً كأصنامٍ
ترددُ نشيدَ السلام
ولا منخورةً كعظامٍ

أكلها الزمنُ في صمت.

لقد مرّ علينا عشرون عاماً
وألفُ فاقةٍ
وألفُ هذيان
مغموسةً بدمِ الظلام
في شارعٍ باكٍ
كدموعِ تمساحٍ
تسير ضدَّ الأمواج
وضدَّ الرياح.

أنا لستُ " آرزر"
حتى أعبدَ للأصنام
أنا صوتُ المطر
وصوتُ العصافير
وصوتُ الحجر ..
والماء ..
والشجر.

أحببتُ القمرَ حتى حدِّ الإدمان
أقتلُ القبحَ على أوراقِ الريحان
أوقدُ نارَ العصيان
وأقفُ في وجهِ السلطان.

لا...
ليست الحياةُ هكذا
يا سيّدَ السلطان
كلابُك مسحورةٌ بالسراب
تركضُ خلف وهمٍ لا يمسك
وتشمُّ حتى كعبَ حذائي.

كسروا بابي
وخلعوا جدارَ بيتي

وبعثروا أوراقي
وزوّروا تاريخَ ميلادي
وقلبوا مكتبتي
فصارت محبرتي عشتار
ودنسوا حديقتي
وبحثوا عن إشراقةِ الشمس
في شرفةِ الصباح.

يا سيّدَ السلطان
كلابُك فضيحةٌ لا تعرف الوفاء
مزّقوا ردائي
وتركوني مطأطئاً في غربةٍ حمقاء
تائهاً في ممرّاتٍ بلا أسماء.

لكنني...

أنا شمعةٌ تضيءُ دروبَ الجهلاء
وعلمي امتدَّ كالأرضِ والسماء
كالبحرِ والمساء
وأزرعُ الورودَ في الصحراء
رغم أنفِ العدم.

منفيٌّ أنا

منفيٌّ أنا...
لا لأن الأرضَ ضاقت بي
بل لأن الجهاتِ تعلمت أن تنكر اسمي
كلما مررتُ في خرائطها.

منفيٌّ أنا ..
حتى في ظلي
فكلما جلستُ
انقسم الظلُّ إلى منفيَّين
يتجادلان حول أيُّنا أكثر غياباً.

أحملُ حقيبتي كأنني أجرّ تاريخاً صغيراً
لم يسمح له أن يكبر
وفي جيبي
بعضُ الغبار الذي نجا من البيوت
حين قررت البيوتُ أن تهدم بهدوء.

في المدن
يتغير اسمي كما تتغير نشرات الطقس:
مرةً ضبابٌ ..
مرةً خطرٌ ..
ومرةً لا شيء يستحق الذكر.

أنا الذي
تعلمتُ المشي بين الحواجز
كما يتعلم النهرُ التعرج كي لا يعتقل
وتعلمتُ أن أتنفس
بقدر ما تسمح به الأسلاك.

رأيتُ الوطنَ
يختصر في ختمٍ صغير

على ورقةٍ كبيرة من النسيان
ورأيتُ الناسَ
يقاسون بالمسافات
بين نقطة تفتيشٍ وأخرى.

في المرايا
لا أظهر كاملاً
دائماً هناك جزءٌ من وجهي
عالِقٌ خلف حدودٍ لا تعترف بالانعكاس.

قالوا: هنا مسموحٌ لك أن تكون مواطناً
بشرط أن تنسى اسمك القديم
وأن تُبدّل ذاكرتك
كما تُبدّل قميصك أمام الريح.

لكن الذاكرة
لا تسلَّم بسهولة
تظلّ تمشي خلفي
كأمٍّ تبحث عن طفلها
في نشراتٍ لا تعترف بالأطفال.

منفيٌّ أنا ..
حتى في اللغة
فكل كلمةٍ أقولها
تفتَّش قبل أن تفهم
وتعاد صياغتها
بما يناسب الصمت العام.

أكتبُ...
لا لأستعيد الوطن
بل لأمنع الغياب من أن يصبح قانوناً
لأقول إن الحجر
ما زال يتذكر اسمه الأول

قبل أن يعاد تعريفه.

في الليل
تخرج المدن من واجهاتها الزجاجية
تخلع أقنعتها الرسمية
وتبكي دون تصريحٍ أمني
ثم تعود مع الفجر
إلى دورها في العرض.

أرى الأمهات
يحملن أسماء أبنائهن
كما تحمل الأعلام في جنازاتٍ مؤجلة
وأرى الأطفال
يكبرون بسرعة
كي لا يسألوا عن طفولتهم.

كلُّ شيءٍ هنا
قابلٌ للمصادرة:
الذاكرة ..
البيت ..
حتى الحلم ..
يطلب منه إذن عبور.

ومع ذلك...
هناك ما يرفض النفي:
شجرةٌ تنبت في الجدار
وصوتُ أمٍّ لا يعرف كيف يعتقل
وخطوةُ رجلٍ
تصرّ أن الطريق لا ينتهي عند الحاجز.

منفيٌّ أنا ..
لكنني لستُ خارج المعنى
أنا داخله كجرحٍ لا يهدأ

وكقصيدةٍ
تربك النظام
كلما نطقت.

وأخيراً ...
لا أعود ولا أُمحى
أبقى
بين وطنٍ لا يريدني
ووطنٍ أصرّ أن أكتبه
كمنفيٍّ
يقيم في اللغة
حين تغلق كلّ المنافي أبوابها.

عيدٌ خارج التقويم

عيد...
عيدٌ مرَّ ككلِّ الأعياد
أوراقُه اليابسة
تتساقط من ذاكرةِ التقويم
سماءُه قنابلُ
تتدرب على الطيران بلا أجنحة
وأرضُه قفطانٌ كورديٌّ
مطرَّزٌ بندوبِ الحكايات.

تؤرّقُه كلماتنا المجنونة
وتولدُ فيه
وجوداتُنا الممنوعة
كأن الحياة
تكتبُ بحبرٍ سريّ
ثم تصادَر قبل أن تقرأ.

عيد...
عيدٌ ككلِّ الأعياد
صفحاتُه مزركشةُ الألوان
زرادشتيةٌ في لهبها ..
عيسويةٌ في صبرها ..
محمديةٌ في ندائها ..
لكنها جميعاً
تتكسر عند أولِ احتكاكٍ بالواقع.

عيد...
يمرّ من هنا
ولا يترك سوى بصمةِ أصابعٍ
على أبوابٍ مغلقة
كأنه طيفٌ

خاف أن يصير حقيقة.

في هذا العيد
لا نعدُّ الحلوى
بل نعدُّ الغائبين
لا نعلقُ الزينة
بل نعلقُ أسماءنا
على حبالِ الانتظار.

الأطفال...
يركضون نحو فرحٍ مؤجَّل
يحملون ضحكاتهم
كألعابٍ قابلةٍ للكسر
ولا يعرفون
أن العيد هنا
يأتي متأخراً
أو لا يأتي.

الأمهات...
يخبزن الصبرَ مع الخبز
يذررن الملحَ على الجرح
كي لا يفضح الألمُ نفسه
وينتظرن طرقاً على الباب
يعرفن سلفاً
أنه لن يأتي.

عيد...
تتزيّن فيه المدن
بألوانٍ لا تخصها
تعلق ابتسامةً مستعارة
وتخفي تحتها
طبقاتٍ من رماد.

رأيتُ الشوارع

تسرّح شعرها بالضوء
لكن الظلال
أطولُ من اللازم
كأنها تشير إلى جريمةٍ
لا يريد أحدٌ أن يراها.

في هذا العيد
يتبادل الناس التهاني
كأنهم يتبادلون الصمت
يقولون: "كلُّ عامٍ وأنتم بخير"
ويعرفون أن الخير
مرّ من هنا ذات يوم
ثم أُبعد قسراً.

عيد...
يجيء كجنديٍّ متعب
يحمل في جيبه
أوامرَ الفرح
ولا يجد من يجرؤ على تنفيذها.

في الساحات
ترقص الأغاني
لكنها تتعثر في منتصف اللحن
كأن الصوت
يمنع من اكتماله.

وفي الزوايا
يبكي الوقتُ
بصوتٍ خفيض
كي لا يتهم بالخيانة.

عيد...
نقف فيه على حافةِ المعنى

ونسأل:
هل ما زلنا أحياءً
لنحتفل؟
أم أننا أسماءٌ مؤجَّلة
تتدرّب على البقاء؟

أنا...
أحمل هذا العيد
كجرحٍ قديم
أحاول أن أزيّنه بالكلمات
لكنه يعود في كل مرة
عارياً من الأمل.

أنا...
أكتب العيد
كما يكتب الغياب
أترك فيه فراغاتٍ واسعة
لأولئك الذين
لم يعودوا.

عيد...
لا يشبهني
ولا يشبه ما كنته
لكنه يمرّ بي
كذكرى ترفض أن تموت.

عيدٌ يابس...
كغصنٍ نسي الماء
كسماءٍ تعلمت
أن تمطر ناراً بدل الغيث
كأرضٍ تحفظ أسماءنا
ثم تنكرها.

ومع ذلك...
نفتح نوافذنا للريح
نترك باب القلب مواربا
لا انتظاراً لمعجزة
بل إصراراً على أنها ممكنة.

عيد...
يكتب نفسه على جبين الوقت
ثم يمحى قبل أن يقرأ
كأنه يخاف
أن يُصدّق أحدٌ
أنه كان يوماً
عيداً.

هذا العشقُ لا يشبهني

آه...
لو تشعرين بغربتي
لقتلتُ هجرتِي تحت قدميكِ
ودفنتُ الموتَ في دهاليز عشقي
وأعلنتُ انتصاري
حين سقطتُ جريحاً فوق ركبتيكِ
وأنتِ تزغردين بدموعكِ الهائلة
كحكايةٍ مذبوحة.

لكن الفقرَ
أعلنَ مراسمَ دفنِ حبّي
قبل ميلادِ فرحي
فتقشّرت دموعي
على عتبات خطواتكِ الخجولة
كسؤالٍ يهرول
من فمِ جريح.

وعطشٌ متوحشٌ
يجوسُ في أعماقي
يلاحقني كظلّي
حتى آخرِ أمل.

آه...
كم من زمنٍ عذّبني
وكم من مسافةٍ عليّ أن أقتلها
كي أصل!
أهذا قدري؟

الأيامُ تنخر عظامي المتعبة
ودمي—
هذا الأحمرُ المسفوح—

يرسم شمساً
وقمراً
وأنتِ خمري
الذي يسكرني على غيابكِ.

على أيِّ صدرٍ
أُشعل قنديلي؟
ومن أيِّ صوتٍ
أستعير حريتي؟

زيديني كأساً من حبكِ
فها هي عناقيد ألمي
ترقص في دمي
تعبر آفاق صراخي
وأنتِ نائمةٌ
على وسادةِ القهر
تحت عرشٍ من ظلال
في حقولِ أملي
التي يبست منذ سنين
كعدالةِ هذا الكون.

حين قرّرتُ أن أكتب عنكِ
ارتجفت حروف قلمي
وثار حبر ذاكرتي
رافضاً أن يوقع
على صفحات اعتذاري.

أعلنتُ ثورتي
في مملكة الفرح
لأنني رسمتُكِ
على جبين النار
وفوق حواجب القمر
وفي رماد السجائر

وفي ليالي السمر
في حوانيت البكاء.

عصرتُ سنين عمري
وهدّمتُ أسواري
وسألت:
من يسمع اعترافاتي؟
من يقرأ جريدة آهاتي؟

أنا وحدي...
أعرف أن حبكِ
سفينة ابتسامتي.

حين بدأتُ نشر قصائد العشق
تردّدتُ كثيراً
فكثيرون كتبوا قبلي
قبلةً من نحاس
وزخرفوا الحبَّ
بابتساماتٍ باردة.

أما أنا...
فلستُ إمبراطوراً
ولا أسطورةً تروى
ولا نبياً للعشق.

أنا فقط...
رجلٌ اقترب منكِ
كزرادشتٍ يبحث عن نارٍ أولى
ليكتب تجربته الأولى
في العشق
تخترق جدار خجله
وتنهيه...
كي تبدأه من جديد.

حين رحلتُ فيكِ
لم أحمل قنبلةً
ولا خططتُ للنجاة
بل وقفتُ على شرفة حزني
ورسمتُ جبالَ روحي
على لوحتكِ.

هاجمني طيفكِ
كجذور زيتونة
عميقاً في النسيان
وصرتِ عنواني
وصار جسدكِ
طقساً دافئاً
لأنفاسي.

حين أحببتكِ ..
لاحظتُ أن الشمس
تفتح أبوابها لكِ
وأن الأجراس
تدقّ في حديقتكِ فقط.

لكن صبري
لم يقوَ على تعاستي
وشعوري—
هذا الثائر—
صار مدينةً بلا حدود.

تشردت كلماتي
وكبرت شجرة موتي
وأنا...
أرتشف رحيق ابتسامتكِ
كمن يشرب الحياة
من حافة الموت.

حين أحببتكِ ..
اختلّ نظام العالم
توقفت ساعتي
وصار الوقتُ يشير إليكِ وحدكِ.

سقطت الجدران
واختلطت الطلقات بالأغاني
وصار الجوعُ وطناً
والموتُ لغةً جماعية.

شعرتُ أن الملايين
تستأجر آهاتي
فصرتُ تاجراً
لبيع الألم
وملكاً بلا مملكة.

وأنتِ...
بقيتِ
قدراً مستحيلاً.

حين أحببتكِ ..
جاء الربيع
واحتفل الدفء بنا
مراتٍ لا تحصى.

في شوارع قلبي
كنتِ قمة المعنى
وأنا—
سارقُ خط الاستواء
من بستان الحرمان.

لستُ خليفةً
ولا طاغيةً

بل شاعرٌ
يهرب من سلطان الألم
يمزج دمه بالسكر
ويشعل قناديل الريح
فوق طاولة الرمل.

حين أحببتكِ ..
غرقتُ في عينيكِ
فصار البكاءُ أجمل ..
واللقاءُ أجمل ..
وحتى الحزن
صار أكثر حياة.

أساطيركِ
همساتكِ
قبلاتكِ
مشاجراتنا الصغيرة...
كلها
تحوّلت إلى نيرانٍ
في دفتر الذاكرة.

وحين حاولتُ
أن أعبّر عنكِ
تمرّدت روحي
وانفجرت الطرقُ في صدري.

ذابت الأغاني في الصباح
وصار كلّ شيءٍ
كذباً:
الشمس
القمر
الحب
الفرح...

حتى أنا وأنتِ
صرنا ابتسامةً
بلا معنى.

فكيف أكتبكِ؟
كيف أقولكِ؟

هذا ما تبقى
من رياح عشقي...
وحين استيقظتُ أخيراً
لم أجد نفسي
إلا ملكاً
على خراب قلبي
ورغباتي
تضغط على زناد تمرّدي.

شكراً لكِ

شكراً لحبكِ...
لن يُشبِعَ النسيانُ
تحت قاعدةِ الفنجان...
علمتِني كيف أكره المساحاتِ والمسافات
والمقاييسَ والهندسة
وألعنَ سايكس–بيكو
بحدوده
القنابلِ والنخيل
وبلغته ومذاهبه...
قسموا حبَّنا
وماءَنا..
وسماءَنا ..
وفجرَنا...

شكراً لحبكِ...
كيف أفكُّ طلاسمَ أزمنةٍ متشابكة
وجدرانِ غرفةِ الأربعاء
ولاهثاتِ المسحوقين
تتبعثرُ على الأرصفة
تلوّن صفحاتِ شيخوختي المبكرة
تنخرُ عظامَ آهاتي الضائعة
وصرخاتِ السنين
اخترقتْ بكارةَ التاريخ
لأنني رسمتُ على وجهكِ اللازوردي
مع الفجر
مع العيّوق الذي لا ينتهي...

شكراً...
وألفُ شكرٍ لحبكِ...
متمردٌ على رمقِ حياتي

شكلتِ وزارةً غوغائية
وزارةَ النهب...
نهبتِ وجودي يا حبيبتي
وثروتي
وصوتي لن يتجاوز الموت
لن يخترق جدارَ الآهات
وآخرَ لحظاتِ عمري...

وزارةُ القمع...
كسرتِ كلَّ حطامِ سفينتي
وقيودُ أحلامي مرسومةٌ
بالدم
والنور
والصفاء...
حطمتِ حمامةَ قلبي
تثورُ فيها ثورةٌ من أجلكِ
وأجلي
وأجلِ كلِّ إنسانٍ حر...

وزارةُ الاستبداد...
عانيتُ الظلمَ يا سيدتي
منذ مئاتٍ وألوفٍ
من القرونِ
من الحسراتِ والاضطهاد...
كفى الشوكُ ينخرُ وجنتي الورد
كفى القدرُ اختار الهولَ والويلات...
لا بدَّ للفجر أن يأتي
ولا بدَّ للنور أن يأتي...

الحياةُ تشرق
وحبي يؤرّقُ من جديد...

شكراً لحبكِ...

علمتِني كيف أبدأ بالقلم
وأضع على سطورِ القلب
بحبرِ الروح
أكتبُ حرفَ "الكاف"
روجا... دل...
سلافة... تاهة...
آهِين...
تنتهي بالضمةِ والنون
بخطٍّ عريضٍ
بلا خجل...

هذا الذي يكتبني

القلم...
سببُ حياتي
وتعاستي
وفقري الوراثيّ
كإبليسَ دخل بيتي
افتعلَ الحربَ بيني وبين زوجتي
وشرّدَ أولادي
وحفرَ في أعوامِ الألفية
وحرّفَ اسمي
وميلادي الأزليّ
كمنقارِ الخشب
نخرَ الأنا... والذاتية.

القلم...
قلمي مشكلة
يكتبُ حروفاً متمرّدة
وكلماتٍ ممنوعة
لغتُها لغةٌ منبوذة
وصرخةٌ غيرُ منقوصة
وجملةٌ لا محلَّ لها
ولا إعرابَ يقبلُها الزمن
حبرُها من نور
تستمدّ من أفكاري الليلية
كلها... جهنمية.

القلم...
آهاتي اليومية
تلومني
وتحملني مسؤولية
موتِ وضياعِ البشرية

وإحساسي
يلتهبُ ناراً في كوانين الأبجدية
كلما تناقصَ
شعورُ الإنسانية.

القلم...
قلمي عشقي
يطعنُ النفوسَ المريضة
ويجمعُ نقاطَ الحروف
وتعرجاتِ الاستفهامات
بأشكالٍ
وألوانٍ
وبأقواسٍ وسهام
بالحجرِ... والقنبلة
وبقطرةِ دمعٍ تكسرُ الصمت
وتفجرُ القرار.

القلم...
ليس خشباً
ولا حبراً عابراً
إنه جرحٌ
تعلم كيف يكتب نفسه
وكيف يرفضُ أن يشفى.

القلم...
حين يضيقُ العالم
يفتحُ نافذةً في جدار الصمت
ويعلقُ عليها
صوتاً لا يرى
لكنه يقلقُ العروش.

القلم...
عدوي وصديقي

ينقذني مني
ثم يعيدني إليّ
أكثرَ انكساراً...
وأكثرَ وضوحاً.

أكتبه...
فيكتبني
أهربُ منه...
فيلاحقني
كقدرٍ يعرف اسمي
أكثر مما أعرفه.

القلم...
ليس ما أمسكه بيدي
بل ما يمسكُ بي
حين أسقطُ من المعنى
ويعيدني
قصيدةً
لم توافق على الصمت.

سيرةُ صرخةٍ لا تموت

في منتصفِ الآهات ..
حين كان الخوفُ يافعاً
طرقتُ أبوابَ الوداع
وكانتِ الهجرةُ تُحاصرُ روحي
في ترّهاتِ الرحيل
وغياهبِ الليل...

في تلك اللحظة
كانتِ الريحُ ترقصُ حولي
وتترنّحُ في أوديةِ الذاكرة
ترسمُ خطواتي المجهولة
وأفكاري
المحبَطة
تهرولُ عبر البحار
والمحيطات...

تحصدُ ما تبقى من أملٍ مع العشّاق
على سفوحِ بيستون
وقبل الشروق
تكشفُ أسرارها
كجرحٍ يتعلمُ الكلام
في حضرةِ الغياب.

ثم يكبر الصوت...

لم أكن أصرخُ
بل كانتِ الصرخةُ
تبحثُ عني
تتسللُ من بين أضلعي
كريحٍ ضلت طريقها
وتسألني:

كيف يولد الصوتُ
من قلبٍ
تعلمَ الصمتَ قسراً؟

أنا...
ذلك الذي ترك ظلَّه
على عتبات المدن
ومضى
ليبحثَ عن وجهه
في مرايا لا تعترف بالمنفيّين.

أنا...
صرخةٌ مؤجّلة
علقها الزمنُ
على حافةِ الانهيار
كلما حاولتُ نسيانها
عادت إليّ
أكثرَ حدّةً
وأكثرَ اقتراباً من اسمي.

في الليل ..
أسمعُ البلادَ
تتنفسُ بصعوبة
كأنها جسدٌ
يحاول أن يتذكر
كيف كان حياً
وأسمعُ الحجر
يهمسُ:
"لا أحد يموتُ تماماً
إذا بقي له صدى".

وأنا...
أجمعُ هذا الصدى

كما تجمعُ الشظايا
وأرتّبُه في جملة
ثم أتركها
تنفجرُ
قصيدة.

صرختي...
ليست ضدّ أحد
بل ضدّ هذا الفراغ
الذي يبتلعُ أسماءنا
ضدّ هذا العالم
حين يتواطأُ مع النسيان
ويطلب منّا
أن نكون أقلّ حضوراً
كي ننجو.

لكنني لا أنجو...
أنا أكتب.

أكتبُ
كي لا يصبح الخوفُ
لغةً رسمية
كي لا يتحول الصمتُ
إلى وطن
وكي لا تختصرَ حياتي
في خبرٍ عابر
لا يلتفت إليه أحد.

صرخة...
تتعلمُ الوقوف
على قدميها
تمشي في الشوارع
بلا هوية ..

لكنها تعرف
أن كلّ من يسمعها
سيكتشفُ
أنها تشبهه.

وحين يتعبُ الصوت
أضعه على كتفِ اللغة
وأقول له:
لا تخف...
ما زال في الحبر
متسعٌ
للحياة.

نوروزُ النار

خائفون، يا أخي...
من صوتِ الحجر
من خريرِ النهر
من عتمةِ الليل
ومن سكونِ البحر.

خائفون، يا أخي...
من شمعةِ نوروز
من ميلادِ الشجر
من ضوءِ القمر
ومن زخاتِ المطر.

خائفون، يا أخي...
من أن تتوحد شراييني
قبل بزوغِ الفجر
من كلمةِ الشعب
حين يتحدثون عن الحرية
ومن لقمةِ الجائعين
حين تصرخُ من شدّةِ الفقر.

مات فينا الربيعُ تلك الليلة
حين سقطت ثلاثةُ "محمدات"
في زهرةِ العمر...

قتلكم الجبناء، يا أخي
العنصريةُ قتلت
محمداً...
ومحمداً...
ومحمداً...

فهذه رصاصةُ الغدر

أم هو القدر؟

ما الفرقُ بين فلسطين
وحلبجة؟
ما الفرقُ بين غزة
وقامشلي
وديار بكر؟
وما بين صبرا وشاتيلا
وديرسم؟

ما الفرقُ بين محمد الدرة
ومحمد... ومحمد... ومحمد؟

وما الفرقُ بين مظلومٍ
وتانيا؟

كلّهم شهداء
من نورِ الحرية
شهداءُ الإنسانية.

خائفون، يا أخي...
من ألوانِ قوسِ قزح
فألوانُه الزاهية
تُرعِبُ نفوسَ العنصرية.

خائفون، يا أخي...
من أغنيةٍ بسيطة
تُغنّيها طفلةٌ
على حافةِ الخبز
من رقصةٍ كوردية
تستيقظُ في دمِ الأرض
من يدٍ ترتفعُ
لا لتضرب

بل لتقول:
"نحن هنا."

خائفون...
من اسمٍ يقال كاملاً
من ذاكرةٍ
ترفضُ أن تُترجَم إلى صمت
من لغةٍ
تخرجُ من تحت الركام
وتُعيدُ ترتيب الحروف
بما لا يناسبُ النسيان.

خائفون، يا أخي...
من نوروز
لا لأنه عيد
بل لأنه نارٌ
تعرفُ طريقها إلى المعنى
ولأنه فجرٌ
لا يستأذنُ أحداً
كي يولد.

نوروز...
ليس يوماً في التقويم
بل كسرٌ في جدارِ الخوف
بل صرخةُ أرضٍ
تستعيدُ اسمها
من بين أنيابِ الغياب.

نوروز...
حين ينهضُ الشجرُ
ليقول للريح:
"لن أنحني بعد الآن"
وحين تتذكرُ الجبالُ

أنها أعلى
من كل البنادق.

خائفون، يا أخي...
لأننا لم نعد
نخاف.

لأن الحجرَ
تعلمَ كيف يُصيب
ولأن الأغنية
تعلمت كيف تبقى
ولأن الطفل
الذي كان يبكي
صار يعرف
أن الدموعَ
يمكن أن تُصبح ناراً.

نوروز...
يمشي فينا
كدمٍ جديد
يوقظُ في العروق
ما حاولوا دفنه
ويكتبُ على جبينِ الأرض:
"لن تنتهي الحكاية."

فدعهم يخافون
يا أخي...

نحنُ
نُشعلُ الضوء
كلما حاولوا
إطفاء النهار.

أريد أن أكون

أريدُ أن أكون...
كتلةً غامضة
وناراً ملتهبةً
في أزمنةٍ متشابكة
أفكُّ طلاسمَ الأحقاد
وويلاتِ الفقراء
وأنينَ الحسرات
حين تناديني
كي أرتويَ ظمأً الحرية.

أريدُ أن أكون...
صرخةً ..
صدىً ..
وقنبلةً ..
في وجهِ الحزنِ الأصفر
وفي مواجهةِ أملٍ
ما وراءَ الأمل
وقداسةٍ
تختبئ خلفَ الموت
كي أفهمَ أسرارَ الحياة.

أريدُ أن أكون...
نقطةَ بدءٍ لا تلغى
وظلَّ سؤالٍ
لا يرضى بالإجابة
وجرحاً
يتعلم أن يضيء
بدل أن ينزف فقط.

أريدُ أن أكون...

ما لا يقال ..
ما لا يُسجَّل في هوامشِ التاريخ
لكنه يهزُّ قلبه
كلما مرّ من هناك.

أريدُ أن أكون...
ريحاً تمسحُ غبارَ الخوف
وصوتاً يخرج من تحت الرماد
لا ليصرخ فقط
بل ليعيد ترتيبَ العالم
بطريقته الخاصة.

أريدُ أن أكون...
ذاكرةً لا تنسى
حتى لو حاولوا محوها
وأثراً
يبقى في الحجر
بعد أن يمرَّ الزمن.

أريدُ أن أكون...
ذلك الذي حين ينتهي
يبدأ في مكانٍ آخر
وكأنّ الحياة
تتعلم منه
كيف تستمرّ.

ترتيلٌ أخير للثائر الأحمر

إهداء إلى روح الراحل الكبير محمود درويش

بدأتَ بالرحيل، وأنهيتَ بالرحيل الكبير...
كم كنتَ وفيّاً للرحيل يا صديقي...
رحلتَ، وما يزال الخنجرُ الذهبي
يتراقص في قلبِ مدينتِك الجريحة.

بدأتَ بخبزِ أمك
الذي يفوحُ منهُ حزنٌ قديم
حزنُ كلِّ قطرةٍ
من دماءِ شهداءِ الحرية
شهداءِ الإنسانية...

رائحةُ البرتقالِ والليمون
رائحةُ سنبلةٍ حمراء
تملأ الوديان حين تنحني للحياة
ورائحةُ زيتونةٍ
تقاوم دبابةَ الغدر يا محمود...

بدأتَ بالحب:
الوطنِ الحر
والاستقلالِ للماء والشجر
كما يطالب به كلُّ المنفيين
والمضطهدين والمشرّدين
من بيوتهم وأرضِ أجدادهم
في هذا العالم الواسع...

وأنهيتَ بالأمل
الذي تضيقُ عليه الدروب...

بدأتَ بالكلمات والسطور

بالحروف والقصيدة
بالقلم والقنبلة
بالفكر والإبداع
عبر قطارِ الزمن العابر...
يا صديقي...

بدأتَ بالعشق
للغةِ الشعور
التي لا تفرّق بين لونٍ وجنس
ولا بين دينٍ ومذهب
ولا بين قوميةٍ وأخرى...

ومع ذلك لم ينتظرك أحد...
من شهداءِ حلبجة
وأطفالِ الحجارة
ولا محمد الدرة ومحمداتِ نوروز
ولا مظلوم وزويا
وقد كُبّلت أيديهم بالأصفاد...

بدأتَ
بحزنِ الصيف الأصفر
وترهاتِ السفر
والأصفاد
والاعتقالات...

وأنهيتَ بخفقانِ قلبك الكبير يا محمود...
يا لهذا الصيف
كم كانت رياحه محرقةً وقاسية...
ثقيلةً على قلوبِ محبّيك...

فقد حملت في هبّاتها
واحداً من أعزتنا
الذين كانوا يسخرون من الموت في كل لحظة...

فمسيرةُ الشعر لن تتوقف
ولنا ولك أن نشعر
بالألم
ومرارة الفقدان...

أنت الإنسان الصلب يا محمود
الرقيق في آنٍ معاً
المخلص لقناعاتك حتى الرمق الأخير...

رحلتَ بصمتٍ ودون مقدمات
بدأتَ بالرحيل الكبير
وما زالت القضية
صامتةً
تنتظر أسرار الكلمات:
جوهر الوفاء
شجون الحزن الدفين
بؤس المدن الجريحة
والتشريد بلا هوادة...

بدأتَ بالرحيل الكبير
وما زالت عيناك
تهتفان صراخاً وأنيناً
وترسمان إكليلاً من الياسمين
على شموخ السطور...

بقلمٍ أخضر...

رحلتَ، وبريقُ حزنٍ يملأ عينيك
ويلاطف الأمل الباكي والقدر...

رحلتَ أيها الخالد...
وبابلو نيرودا يعانق القمر
يرتل للأزهار
ويبتسم للربيع الآتي والسهر...

رحلتَ، وأعصابُ دمي
تناشد سمفونية الأمل
ويطارد طيفُ عصفورٍ شقي
يداعب أنثاه بمرحٍ خجول
على صفحات الشجر...

رحلتَ، وطيفُ كوردستان
وشعبُها ينتظران المزيد
من سحرِ جنونك المخملي
وذاكرةِ النهر...

رحلتَ، وأطفالُ الحجارة
يزفون مجداتِ نوروز
بحزنِ الربيع الصامد والمطر الدامي
يداعب الدروب
ويتمرغ الترابُ في أطياف القمر...

رحلتَ...
ويحتضن صدرك أحلامُ الصبايا
بخشوعٍ
ويندثر الصمتُ تحت غطاء الصمت
ويسقط رهانُ الآهات ..
رويداً...
رويداً...

حين يدبّ الليل خجولاً
وتركض الأناشيد في شرايين الحقول
وتقذف الريح تمتماتِ الأنين
على مسامع السلاطين
لتعقد القران الأبدي...

فوق الزمن
فوق مساماتِ قلبي الجريح

تلتقي بصلاح الدين
وتلتقي بحامد
وتزفُّ أخبار الوهاد
إلى ملاي الجزيري...

ولتركع لك الأصفاد...
أيها النبيل الخالد...

لك الوفاء
وقلبي يرتّل صفير الحزن صيفاً
ويقطر دماً صافياً
فوق شظايا الصبح الهالك
وفوق الربى تتجمع ثرى روحي...

لأهديك عبر الأثير
قبلة الوداع الأخير...

أيها الثائر الأحمر...

على حدودِ المحو

أنا الذي تعلّم أن يكتب اسمه
على جدارٍ ينهار كلَّ مساء
ويقول للريح:
مرّي...
لكن لا تأخذي ملامحي معكِ.

أنا ابنُ هذه الأرض
حين تتذكر نفسها في الحروب
وابنُ السؤال
حين يتكاثر في فم الإجابة
كجرحٍ لا يريد أن يلتئم.

لي وطنٌ
لا يقاس بالحدود
بل بعدد الذين فقدوه
ولم يفقدوا البوصلة.

ولي لغةٌ
تخرج من بين أصابعي
كحمامةٍ نجت من الرصاص
ثم لا تجد شجرةً
تشرح لها معنى النجاة.

أيها العالم...
لسنا أرقاماً في نشراتك
نحن الذين مررنا من هنا
وتركنا ظلنا في العراء
كي لا ننسى اتجاه الضوء.

في المدن
يتغير لون الدم

بحسب مزاج الخرائط
وفي المدارس
يتعلم الطفل
كيف يكتب "الوطن"
ثم ينسى أن ينطقه دون خوف.

لكنني...
رأيت الحجر
يصبح شاهداً
ورأيت التراب
يحفظ أسماء الذين لم يعودوا
كأن الأرض
دفترٌ لا يشيخ.

يا هذا الليل الطويل
كم من قمرٍ خبأته في جيبك
ثم أنكرتَ النور؟

نحن لا نموت بسهولة
نحن نُؤجَّل فقط
كقصيدةٍ لم يكتمل وزنها
لكنها بقيت تتنفس
في صدر اللغة.

أمشي...
وفي داخلي وطنٌ
يتعلّم كيف يقف
بعد كل سقوط
كأن السقوط
مجرد تدريبٍ على الوقوف.

أمشي...
وفي قلبي مدينةٌ
تخلع أسماءها كل مساء

ثم تعيد كتابتها بالفقد.

لا تسألني عن السلام
فأنا أعرف الحرب جيداً
حين تتخفى في خطابٍ رسمي
وحين تضع على وجهها
قناع "الضرورة".

رأيتُ الأمهات
يحملن أسماء أبنائهن
كأنها شموعٌ لا تنطفئ
ورأيتُ الأطفال
يكبرون بسرعة
كي لا يسألوا عن طفولتهم.

ورأيتُ الحدود
تتثاءب كل صباح
ثم تعيد رسم نفسها
بمزاج الجنرالات.

لكننا...
نكتب.

نكتب كي لا يصبح الصمت
اللغة الوحيدة المتداولة
نكتب كي لا تتحول الذاكرة
إلى تهمة
ونكتب كي لا ينجح الغياب
في أن يكون نظاماً.

أنا لستُ بطلاً
أنا مجرد أثرٍ
لم يوافق على الاختفاء
مجرد صوتٍ

تعلم أن يكون هشّاً
لكنه لا ينكسر تماماً.

يا أيها العابرون فوقنا
كأننا طريقٌ بلا أصحاب
تذكروا:
كل ما لم نمتلكه بالقوة
امتلكناه بالكلمات.

فالكلمة
ليست زينة اللغة
بل بندقيةٌ
تطلق المعنى
في وجه العدم.

وفي النهاية...
لا ننتصر كثيراً
ولا نهزم كثيراً
لكننا نترك في الهواء
أثرَ من مرّوا
ولم يُمحَوا.

ونمضي...
كما تمضي القصيدة
حين تتأخر عن معناها
لكنها تظلّ
أصدق من الحقيقة.

إلى قلبك ينبض الأمل

"مهداة إلى بابلو نيرودا"

ستشرقُ الشمسُ...
لا بدّ منها
وسيتبدل النهارُ
مهما طال الزمان أو قصر.

ويبقى المستقبلُ الحالمُ
أوسعَ
وأشملَ
لتكون للحياة موطئُ قدمٍ
تبثُّ
أشرعةَ الخلاص
تبثُّ
صوتَ النضال
وأنينَ القدر.

وستبقى الشعوبُ
تكافحُ من أجل الحرية
خلف قضبان الأمل.

يا صاحبَ القلب الكبير
بلا دماء
يا عاشقَ الربيع
بلا أوراق...

ستشرقُ النورُ
دون شك
لأن تشيلي تتابعُ أغنيات العيد
في عرين حلبجة
ولأن فرانكو

وبينوشيه
رحلا دون رجعة.

ولأن أنصار السلام
يُردّدون
في كل الصباحات
أناشيد الغضب
وينثرون أسرار الحكايات الهادفة
دون ملل.

ستشرق...
دون شك
لأن بيكاسو
ما زال يعبث على صدور الصفحات
وخلف الزوايا الهالكة
يرسم البكاء ..
كالمطر ..
كالنهر ..
كالهول الجارف والصخر.

لن تبكيك
حبيبتك ثانية.

فإن متَّ مرتين
فلأن في عظامك نخوة الشعراء
وحماسة الإنسان
كما الأنبياء
وخلود الأتقياء.

أيها الخالد...
بابلو...
هذه المرّة
لا كما كل المرّات
فالشعوب جائعة

ولا خوف
على من يسبق الحياة.

أيها الراحلُ الأمل
كم أحلم
بصرخاتٍ
آنذاك لتدور العجلة
وتتحول النارُ إلى إشراقةٍ خالدة
تروي حكايات
أورارتو
وعظمة لوتارو.

كم أحلم
أن أقرأ المستقبل
وأتصفح
التاريخ
لأصل بين وان ولالش
وأرسم الجبال بماء دمي
كما سيبان
لعلها صورةٌ غادرت الغابر
وارتوت
من تحت أقدام الأرض آرزر
وسجدت للحياة
في تلك الليلة الخريفية.

انشطر قلبك الكبير
وأنشد
للملايين نشيد الأمل
نشيد الحياة...
لم يتوقف
بل يدور...
ثم يدور...

ماذا بقي من جسدي

ماذا أعطيكِ...
وما بقي في جعبتي المهترئة
سوى بعض كلماتٍ ممنوعة
تخترق أفكاري الليلية
وألوانٍ تخيف الجبناء؟

ماذا أعطيكِ...
وما بقي من جسدي
سوى شيبتي من الحسرات والهموم
وفقري الوراثي
وذكورتي الشرقية...
هذا هو ميراثي
ووصيةُ جدّي.

ماذا أعطيكِ...
سنواتٍ غابرة
وصفحاتٍ مؤلمة
أم جماجم في كهوف بلا وطن
وشعباً بلا أرض
ومأوى...
بلا حياةٍ ولا حقوق؟

ماذا أعطيكِ...
وما بقي من وجودي
سوى مأساةٍ...
ومأساة ..
أنينٍ ..
وصراخ؟

هل أهديكِ أجساداً محترقة
وخمسةَ آلاف شهيدٍ في حلبجة

وباقةً من ديرسم ..
وشرناق ..
وآمد ..
وويلات المدن الثلاث (...)؟
هديةَ ليلةِ العيد؟

ماذا أعطيكِ...
هل أعطيكِ لوحةً من قدري
رذاذَ المطر من خريفي
وشهوراً معلقة؟

أم ملحمتي
مع جدران السجون ..
والتعذيب
ورحلةً غيبوبية؟

ألا يكفي أني حملتُ عنواناً عريضاً:
مهاجرٌ في وطني
ومنبوذٌ في أرضي؟
فهذا ما ملكتُ من صفحاتِ تاريخي
وكلمةُ مرورِ قصيدتي المبعثرة.

هل تطلبين عنواناً آخر؟
روحٌ بلا وطن...

هويةٌ تحت الرماد

أنا الذي خرجتُ من فتحةِ الجرح
ولم أجد اسمي عند البوابة
كنتُ أشبهُ ظلاً
تعلم المشي على جدارٍ من رصاص
ويحفظ اتجاه الريح
كي لا يخطئ المنفى.

لي جسدٌ
لا يكتمل في المرايا
كلما اقتربتُ منه
تراجع كأنه لا يعرفني
كأنه خُلق ليكون احتمالاً
لا حقيقة.

في صدري
مدينةٌ تنام واقفة
تفتح أبوابها للغبار
وتغلقها على صرخاتٍ قديمة
هناك...
يتدرّب الصمت على هيئة الوطن.

رأيتُ الأرضَ
تُقسَّم على طاولةٍ باردة
بأصابع لا تعرف الدم
وكان نصيبي
ظلَّ نافذةٍ لا تطلّ على أحد.

قالوا لي:
اكتب اسمك كي تُعرَف
لكن الاسم هنا
يختصر عند أول حاجز

ويستبدل برقمٍ
يصلح للعدّ لا للحياة.

أنا ابنُ الغبار حين يرفض الاستقرار
وابنُ الطريق حين ينسى نهايته
وابنُ السؤال
حين يُنفى من الإجابة.

في المدن
تتبدّل الوجوه كما تتبدّل اللافتات
لكن الجرح
يبقى ثابتاً كأنه خُلق ليشهد.

رأيتُ الأطفال
يكبرون بسرعةٍ مريبة
كي لا تسجَّل أعمارهم في دفاتر الغياب
ورأيتُ الأمهات
يعدن أسماء أبنائهن
كما تعاد التلاوة في صلاةٍ بلا يقين.

الخرائط
تتعرّق من ثقل الخطوط
تتظاهر بالدقة
لكنها تخفي ارتباك المعنى
كل خطٍّ فيها
كان خنجراً صغيراً
في خاصرة الحلم.

ومع ذلك...
كنتُ أكتب.

لا لأن الحروف تنقذ
بل لأنها تؤجّل السقوط
وتمنحني لحظةً إضافية

قبل أن أُمحى.

أكتب كي لا يتحول الصمت
إلى لغةٍ رسمية
وكي لا يصبح الغياب
نظاماً إدارياً.

في الليل
تجلس المدن بلا زينة
تخلع أقنعتها الزجاجية
وتبكي بصوتٍ لا يُبثّ
ثم تعود مع الفجر
إلى دورها في المسرح.

أما أنا...
فأمشي داخل احتمالي
أحمل ظلي كوثيقةٍ غير مكتملة
وأبحث عن بابٍ
لا يغلق عند السؤال الأول.

ليس لي وطنٌ ثابت
لكن لي ذاكرةٌ
تقاوم الترتيب
تخلط بين الخراب
وما يشبه الحلم.

رأيتُ الحجر
يتعلم الكلام
ورأيتُ التراب
يعيد أسماء الذين غابوا
كأن الأرض
تكتب سيرتها السرّية
بأصابع لا ترى.

أيها العالم...
لسنا عبوراً عابراً في هامشك
نحن الندبة التي تشرحك
والسؤال الذي يفضح يقينك.

أنا لا أطلب اعترافاً
أطلب فقط
ألا يصادر الهواء من صدري
أن يترك لي مقدار خطوة
في اتجاهٍ غير مرسوم.

وأخيراً ..
لا أصل ولا نهاية
أبقى بين احتراقين
كشجرةٍ نبتت في رمادها
ورفضت أن تسمى.

وأمضي...
لا كناجٍ ولا كضحية
بل ككائنٍ
تعلم أن يكون ناقصاً
كي لا يمحى تماماً من الوجود.

أرثيكَ بألمٍ... وحزنٍ صيفيٍّ أصفر يا فرهاد

(إلى روح فرهاد خليل مصطفى)

كان حلماً... يا فرهاد
كان حلماً في عمق الحقيقة...
كان حلماً حين سقيتَ شجرةَ الزيتون والبرتقال
كان حلماً حين شيّدتَ عشقاً
للحرية...
للأرض...
للوطن...

كان حلماً حين رسمتَ الحروفَ والكلمات
وطردتَ الظلمَ من سطورها
كان حلماً حين رفضتَ العاداتِ والتقاليدَ الريفية
كان حلماً...
حين كافحتَ الحياةَ وقاومتها رغم عرجِ ساقك
كان حلماً حين ناضلتَ من أجل شعبك المظلوم...

كم شيّدتَ صروحاً من الحلم
وكم غرستَ في الوقتِ أشجاراً من الأمل الوردي...
كان... وكان...
وكان حلماً حين رأيتك بين رفات التابوت
ورغم ذلك... لم تقاوم الموت يا فرهاد...

اللعنةُ على تلك اللحظة
حين رنّ جرس هاتفي
وأخبروني بنبأ رحيلك...
رحيلك المبكر، في ربيع العمر يا فرهاد...

وفي تلك اللحظة
حاولتُ أن أُكذّب الخبر
فرفضتْه أحاسيسي... وعقلي...

ركضتُ...
لكن ساقيّ رفضتا أن تحملاني
إلى تلك المسافة القصيرة
وكانت عيناي تذرفان الدموع
كنهري الفرات ودجلة...

صرختُ في وجه القدر المشؤوم
ولعنتُ يوم الحادي والعشرين من آب
ذلك اليوم الذي اختطفك منّا
إلى الأبد...

كم تمنّيتُ...
لو قاومتَ الموتَ دقائقَ أخرى
كما قاومتَ الفقرَ والحياة...
لكنك...
قررتَ الرحيل دون وصية
دون أن تودّع
رفاقك...
أصدقاءك...
ومحبّيك...

بكتكَ خراب عشك
أشجارُه...
جبالُه...
سهولُه...
ووديانُه...
من مشرقه حتى مغربه...

واحتضنتك ترابه يا فرهاد
وبدأتَ الرحيل الأبدي
وما زالت القضيةُ صامتةً
تنتظر أسرار الكلمات
وجوهر الوفاء

وشجون الحزن الدفين
وبؤس المدن الجريحة
والتشريد بلا هوادة...

بدأتَ الرحيل...
وما زال الحزنُ يواصل صبره
يناطح السحاب
ويطلب الحرية للماء والشجر...

بدأتَ الرحيل...
وما زالت روحك تقاوم الغدر يا فرهاد
بدأتَ الرحيل...
وما زالت عيناك تهتفان
صرخةً وأنيناً
وتداعبان ألوان قوس قزح...

كم كان صيفاً محرقاً
يحمل في ثنايا الروح نعياً ثقيلاً
كم كان كابوساً مرعباً
يحمل في طيّاته مرارة المأساة
وطعم الألم...

رحلتَ...
وبريقُ الحزن يملأ عينيك
ويلاطف الأملَ الباكي...
والقدر...

رحلتَ...
أيها الباقي في الذاكرة
وعشتار تعانق القمر
وترتّل للأزهار
وتبتسم للربيع الآتي...
والسهر...

ويطارد طيفُ عصفورٍ شقيّ
أنثاه بمرحٍ خجول
على صفحات الشجر...

رحلتَ...
لكنّ الحلمَ لم يترك كتفيك
ظلّ عالقاً هناك
كضوءٍ يتيمٍ
يرفض أن ينطفئ في العاصفة...

وتراجعت الأصواتُ إلى داخلها
كأنها تخجل من البكاء
وانكسرت الآهاتُ بصمتٍ ثقيل
يتسرب ببطء
كظلٍّ يفقد ملامحه...

وحين تمدد الليلُ على جراحنا
استفاقت الأغاني
تركض في عروق الحقول
وترفع الريحُ أنينها
رسائلَ مبعثرة
إلى عروشٍ لا تسمع...

كأن الغياب
أبرم عهده الأخير
مع الوقت
وكتب اسمك
على نبضنا المفتوح...

رحلتَ...
لكن دمي ما زال
يصغي إلى نداءك
يعزف في داخلي

لحناً لا ينكسر...

لك الوفاء...
ولقلبي هذا الارتجافُ القديم
ينشدك حزناً
يشبه الصيف حين يحترق
ويقطر وجعاً صافياً
فوق بقايا فجرٍ متعب
وفوق التلال الصامتة...

ومن شتات روحي
أجمعك من جديد
وأرسل إليك
آخر ما تبقى منّي:
قبلةً
تقاوم الفقد...
أيها الباقي فينا.

لكنك لم ترحل تماماً يا فرهاد...
أنت الآن
في كل حجرٍ يرفض السقوط
في كل شجرةٍ تتعلم الوقوف من جديد
في كل طفلٍ
يحمل في عينيه سؤالاً أكبر من عمره...

أنت في الهواء
حين يمرّ فوق قريتك
وفي التراب
حين ينادي باسمك سرّاً
وفي اللغة
حين ترفض أن تصمت...

نمْ قليلاً يا صديقي...

فنحن من سيسهر هذه المرّة
نحرس الحلم الذي تركته
معلقاً بين السماء والأرض
ونكتب اسمك
كي لا يضيع...

لأن الذين يشبهونك
لا يموتون...
بل يتوزّعون
على الجهات
كوصيّةٍ من نار.

٢٠١٠ / ٨ / ٢٦

ضوءُ الفجرِ في عينيكِ

إنّ التفاؤلَ رفيقُ الجمال
لا يبرحُ القلبَ إذا سكنه
وعيناكِ لم تخلقا لتعرفا الأسى
ولا لتسكنهما خيباتُ الأيام الطويلة
أبداً...
فالبكاءُ في حضرةِ ضحكتكِ
نشازٌ لا يليق.

تبسمي...
فالحياةُ ما تزالُ تفيضُ بالضياء
كالوردِ حين يفتحُ عينيه
لأول مرّةٍ على الشمس
وكالنسيمِ
حين يهمسُ في شعركِ
ويحملُ أسرارَ بحرٍ بعيد
ويتركُ على جلدكِ
رائحةَ الحرية.

أراكِ تمشين في طرقاتِ الضوء
كأنكِ تستعيدين ربيعاً ضائعاً
تمسحين الغبارَ عن الأرصفة
وتزرعين الأملَ
في كل زاويةٍ مكسورة.

كلُّ خطوةٍ منكِ
تصيرُ أغنيةً للحياة
وكلُّ نظرةٍ
قصيدةٌ للشمس والليل معاً.

يا من تقبضين على خيوطِ الضوء
بين أصابعكِ ..

وتعيدين صياغةَ السماء
بعد كل عاصفة
إنكِ شجرةٌ طيّبة
تنبتُ في صحراءِ الروح

وحين تضحكين...
يتعلم القمرُ أن يُشرق
وتتعلم النجومُ
أن تسافر في دروبٍ جديدة.

حتى الصمتُ بيننا
يصيرُ لغةً حيّة
تغني بأعذبِ الألحان
وتحملُ في طياتها
وعداً بالعودة إلى الجمال،

إلى الطفولة
التي لم تغادرنا
إلى عيوننا الصغيرة
التي ما زالت تبحثُ عن الفرح.

إنّ التفاؤلَ لكِ رفيق
والحبَّ لكِ وطن
والأملُ يقطنُ شفتيكِ حين يفيق
فتعلميننا أنّ الحياة—مهما ثقلت—
تبقى جميلة

إذا كان هناك قلبٌ
يشعُّ بالدفء
ونظرةٌ
تحملُ ضوءَ الفجر.

وأنا...
كلما ضللتُ الطريق

أعودُ إليكِ
كأنكِ الجهاتُ كلها

أضعُ تعبي في عينيكِ
فينامُ الحزنُ قليلاً
وأوقظُ فيكِ صباحي
كي أبدأ من جديد...

أنتِ لستِ امرأةً فقط
بل نافذةٌ
يطلّ منها العالمُ
على احتماله الأجمل

وحين تنادين اسمي
يتغير معنى الأشياء
وتصبح الحياة
أقربَ إلى النجاة.

فكوني كما أنتِ...
ضوءاً لا ينطفئ،
وفجراً
يتكرر في العيون

كوني تلك البداية
التي لا تشيخ
كي نظلّ—معكِ—
نتعلم كيف نحبّ الحياة
من أولها...
كلّ مرة.

أُسمّي هذا الحنين وطناً

أنا الذي
كلما حاولتُ أن أصلَ إليَّ
تاهتِ الطرقُ في وجهي
كأنني خُلِقتُ لأكونَ المسافةَ
لا العبور.

أنا الذي
أحملُ قلبي كمدينةٍ محاصرة
كلُّ أبوابها تؤدي إلى غياب
وكلُّ نوافذها
تطلُّ على ذكرى
لم تكتمل.

لي اسمٌ...
لكنه يسقطُ من فمي
كلما ناديتُ نفسي
كأنّ الحروف
تخافُ أن تعترف بي
أو تخجلُ من هذا الخراب
الذي أسكنه.

أمشي...
وفي خطوتي صدى مَن سقطوا قبلي
وفي ظلي
حكاياتُ الذين لم يجدوا ظلالهم
كأنني
سليلُ الغياب
ووارثُ الخسارات القديمة.

يا أيها الليل ..
كم أخفيتَ من وجوهٍ

كانت تشبهني؟
وكم تركتَ لي من قمرٍ
لأتعلم كيف أبكي
بضوءٍ خافت؟

أنا لستُ حزيناً فقط...
أنا هيئةُ الحزن
حين ينسى اسمه
أنا الصمتُ
حين يضيقُ بنفسه
والكلمةُ
حين تخونها لغتها.

أحببتُ...
كما يحبُّ الغريقُ فكرةَ اليابسة
كما يحبُّ المنفيُّ
صوتَ اسمه في وطنٍ بعيد
لكنّ الحبَّ
كان دائماً خطوةً ناقصة
في طريقٍ لا ينتهي.

هي...
كانت تشبهُ الضوء
حين يمرّ مسرعاً على جرح
تشبهُ نافذةً
تفتح في صدر العتمة
ثم تغلق بلا وداع.

قلتُ لها:
كوني قليلاً منّي
كي أحتمل نفسي
فابتسمتْ
وتركتني

أكثرَ مني...
وأقلَّ من احتمال.

ومنذ ذلك الحين
وأنا أبحثُ عنها ..
في وجوه العابرين ..
في ارتباك الغيم ..
في تعب الطرقات ..
ولا أجد
سوى انعكاسي
يحدّق فيّ
كغريب.

يا هذا العالم
ما الذي فعلته بنا
كي نصير بهذا الهشاش؟
نخافُ من الحب
كما نخافُ من الحرب
ونخسر الاثنين
دون أن نفهم لماذا.

رأيتُ الأمهات
يحملن أسماء أبنائهن
كما تحمل الأضرحة
ورأيتُ الأطفال
يكبرون بسرعة
كي لا يسألوا
عن طفولتهم المفقودة.

ورأيتُ المدن
تخلع وجوهها كلَّ مساء
تغسل تعبها
بدموعٍ لا ترى

ثم تعود في الصباح
لتكذب على نفسها
بابتسامةٍ رسمية.

أما أنا...
فكنتُ أكتب
لا لأن الكتابةَ تنقذ
بل لأنها تؤجّل الغرق
تمنحني وقتاً إضافياً
لأفهم
كيف ينهار الإنسان
بلا صوت.

أكتبُ
كي لا يتحول النسيان
إلى قانون
وكي لا يصير الغياب
نظاماً مكتملاً.

في الليل ..
أجلسُ مع نفسي
كعدوَّين قديمين
نتبادل الصمت
ونعدُّ الخسارات
ثم ننام
على هدنةٍ مؤقتة.

أنا الذي
لم أعد أميّز بين الطريق
والهاوية ..
ولا بين الحلم
وما يشبهه من كوابيس.

لكنني...
رغم كل هذا
ما زلتُ أؤمن
أن في هذا الخراب
بذرةَ نجاة
وأن في هذا الحزن
موسيقى خفيّة
لا يسمعها
إلا من انكسروا تماماً.

أُسمّي هذا الحنين وطناً
وهذا الألم حياة
وأُسمّي نفسي
كائناً
تعلم أن يبقى
رغم كل شيء.

وفي النهاية...
لا أنتصر ..
ولا أنهزم ..
لكنني
أترك في هذا العالم
أثراً خفيفاً

كقصيدةٍ
مرّت من هنا
ولم ينتبه لها أحد...

إلا قلبٌ
كان يشبهها.

لا تتركوا لي قبراً... واتركوا لي الطريق

لا أريدُ منكم
أن تبحثوا عن اسمي
في رخامٍ بارد
ولا أن تضعوا على صدري
وردةً متأخرةً
تعوِّضُ غيابكم عن المعركة.

لا أريدُ قبراً...
فالقبورُ
أرشيفُ العجز
والموتُ الحقيقي
أن نصيرَ أرقاماً
تقرأُ بلا ارتجاف.

إن مررتم ذات يوم
بجدارٍ يحملُ اسمي
فامسحوه...
واكتبوا مكانه
خطوةً إلى الأمام.

لا تتوقفوا عندي
فكلُّ توقفٍ
خيانةٌ صغيرةٌ للزمن
وكلُّ دمعةٍ مؤجَّلة
تسرقُ منكم
دقيقةً من الطريق.

اذكروني...
لكن لا تبطِئوا
اجعلوا ذِكراي
ريحاً في ظهوركم

لا حجراً
في أقدامكم.

وإن ثقلتُ عليكم
كاسمٍ قديم
فاقذفوني في الأنهار
كي أتعلم الجريان
وفي الصحارى
كي أتعلم الصبر
وفي الأودية
كي أتعلم الصدى...

ولا تعودوا إليّ.

امضوا...
فالوقتُ
ليس صديقاً للمترددين
والأحلامُ
لا تنتظر من يتأملها طويلاً
دون أن يلمسها.

مرّوا في طرقكم
بقرب النائمين
لكن لا تمشوا بهدوء—
اصرخوا في وجوههم
اهزّوا أكتافهم
قولوا لهم:
الحياةُ
لا تُورَّثُ للغافلين.

أيقظوهم...
ليس بالشفقة
بل بالضرورة

فالليلُ
يطول حين نرضى به
ويخاف
حين نكسرُ صمته.

قولوا لهم:
إن الفجر
لا يأتي وحده
بل يستدعى
بخطوةٍ أولى
على طريقٍ مجهول.

وإذا تعثرتم...
فلا تعودوا إلى الوراء
فالأرضُ التي تركتموها
تعلمت كيف تنساكم
والأبوابُ القديمة
لا تفتحُ مرتين.

امضوا...
حتى لو كنتم وحدكم
فالوحدةُ
أقلُّ قسوةً
من الوقوف.

أنا لستُ نهاية
أنا بدايةٌ مؤجَّلة
صوتٌ انكسر
كي يتعلم الصراخ
وجسدٌ سقط
كي يعرفَ الآخرون
كيف يقفون.

لا ترفعوا صورتي

ارفعوا الطريق
لا تحفظوا اسمي
احفظوا الاتجاه
لا تقولوا: "كان هنا"
قولوا: "سنكون هناك".

فالحياةُ
لا تكتبُ على شاهدٍ حجري
بل تكتب
في الخطوات التي لا تتراجع
في الأيادي التي لا ترتجف
في القلوب التي تعرف
أن الخوف
مجردُ عادة.

وإذا مررتم
بظلي يوماً
فلا تنادوني—
تابعوا السير
فأنا هناك أمامكم
في المسافة
التي لم تقطع بعد.

لا أريدُ منكم
أن تزوروا قبري...
بل أن تلغوا فكرة القبر
أن تجعلوا من الأرض
ساحةً مفتوحةً للحياة
لا حديقةً صامتةً للأسماء.

أسرعوا...
فالزمنُ
لا ينتظر أحداً

والحلمُ
كلما تأخرتم
تعلم أن يعيش
بدونكم.

أسرعوا...
فالريحُ إلى جانبكم
والأفقُ
أقربُ مما تظنون
والحياة...
لن تعطى
إلا لمن يركضون نحوها.

أنا...
لستُ إلا أثراً
يدلكم على الطريق
فلا تقفوا عند الأثر
بل كونوا الطريق.

الدم... حين يتذكر اسمه

الدمُ في كلِّ مكان...
ليس كعصير البرتقال في أفواه الكبار
بل كحقيقةٍ خرجت من صمت الأشياء
وانسكبتْ على الطاولات
كما تنسكب النبوءةُ حين تتأخر.

الدمُ في كلِّ مكان...
على أرصفةٍ نسيت أسماء أصحابها
في ممرّات البيوت التي تعلمت أن تغلق عيونها
وفي أيدي الأطفال
الذين لم يعرفوا الفرق بين اللعب
وبين الوداع الأول.

الدمُ ليس لوناً...
إنه لغةٌ قديمة
تتكلم حين تصمت الخرائط
وحين تنام العدالةُ
في حضن الخوف.

رأيتُه في عينيكِ
أعمق من بئرٍ خائفٍ من نفسه
وفي شعركِ
كأن الريح تعلمت أن تكتب الشعر
على جسد الصنوبر
حين يعتقل الضوء.

كنتِ تشبهين النور
لكن النور هنا
يمشي حافياً بين الأسلاك
ويمتدّ آلاف الأميال
ولا يصل...

إلى أيِّ يدٍ لا ترتجف.

أيتها التي تشبهين الطريق
لكن الطريق فقد بوصلته
اقطفيني...
لا كزهرةٍ في كتاب
بل كجرحٍ يريد أن يتنفس خارج القفص.

اضميني إلى صدركِ
كما يضمُّ وطنٌ صغيرٌ إلى صدر منفيّ
شمّيني حتى الارتباك
واسكري من رائحتي
كما يسكر البحر من ملحه حين يفيض.

أشبعي عينيكِ بي...
ثم لا تصدّقي ما سترينه
فالأشياء هنا
تتخفى في أسماءٍ مستعارة
والأجساد
تتعلم أن تكون مؤقتة
كالفكرة حين تطاردها البنادق.

ارسميني على حافة غيابك
ليس كذكرى
بل كاحتمالٍ لم يكتمل
وكصوتٍ
لم يجد فمه بعد.

واجعليني إكليلاً
على جنازةٍ تمشي خلف الشمس
جنازةٍ لا تعرف إن كانت
وداعاً
أم تمريناً أخيراً على البقاء.

يا نداء...
لا تبكي.
فالبكاءُ ليس براءةً
بل طريقةٌ قديمة
يتذكر بها الإنسان أنه مكسور.

نحن لم نخطئ...
لكننا ولدنا في جهةٍ
كانت الخسارةُ فيها
مقدمة الحياة
وكان السؤال الأول
هو: لماذا جئنا؟

جئنا...
كما يأتي الضوء متأخراً إلى مدينةٍ مطفأة
وكما يأتي الحلم
إلى عينٍ لم تعد تثق بالنوم.

جئنا
لنحمل أسماءنا على أكتافنا
كأنها حقائب لا نعرف ما بداخلها
ولنمشي
بين دمٍ يتذكر اسمه
وبين أرضٍ
تتعلم كيف تنكر أبناءها.

الدم...
ليس لوناً فقط
إنه سؤالٌ مفتوح
على صدر العالم
لا يجرؤ أحدٌ
على إغلاقه.

أنا عابدُكِ القديم

أنا عابدُكِ القديم...
لا من زمنٍ واحد
بل من طبقاتٍ متراكمة في الذاكرة
من أصواتٍ نسيت أسماءها
ومن وجوهٍ كانت تشبهني
ثم تكسّرت على حوافّ الغياب.

أتيتُ إليكِ
لا كعاشقٍ يتقدم
بل كظلٍّ يبحث عن صاحبه
كجسدٍ نسيَ أين انتهى
وأين بدأ النداء الأول.

كان الليلُ طويلاً بما يكفي
ليصنع من الطرقات متاهةً داخل القلب
وكانت المدينةُ نائمةً
كما تنام الأسئلة حين تخاف الإجابة.

وقفتُ أمام بابكِ...
لا أعرف إن كان باباً
أم ذاكرةً مغلقةً على نفسها
لكنني شعرتُ أنني أعرفه
كما يعرف الغريقُ شكل الماء.

لم أطرق الباب...
بل طرقتُ احتمالي
ذلك الذي ظلّ ينجو منّي
كلما اقتربتُ من الحقيقة.

يا امرأةً تسكن الضوء ثم تنكره
لماذا أطفأتِ مصباحكِ؟

هل خفْتِ أن يرى العالمُ
ما لا يقال بيننا؟

أم أن النورَ نفسه
تعب من الانتظار
فانسحب إلى داخله؟

في الداخل، أعرف ..
هناك صمتٌ يتدرّب على البقاء
وجدرانٌ تحفظ أسماءنا
لكنها لا تعترف بها.

أنا لا أطلب الدخول...
أنا فقط أطلب أن أفهم:
هل ما زال في هذا العالم
مكانٌ لخطوةٍ واحدةٍ نحوكِ؟

خذيني...
لكن لا كمن تنقذين ..
بل كمن تعيدين تشكيله من الرماد
من احتمالاتٍ لم تكتمل
من رجلٍ تعلم أن الحبَّ
ليس شعوراً
بل طريقة وجود.

خذيني من مدينةٍ إلى مدينة
من ضياعٍ إلى ضياعٍ أعمق
من بحرٍ لا يعرف اسمه
إلى بحرٍ لا يسأل عن الناجين.

في صدري قيثارةٌ قديمة
ليست موسيقى...
بل جرحٌ إذا لمِس
تحول إلى لحن.

تعزفكِ حتى حين تصمت
وتعيدكِ من بين الأشياء
كما يعيد المطرُ تشكيل الأرض
دون أن يستأذنها.

وفي عروقي...
يمشي الدمُ كأنه فكرةٌ غير مكتملة
كأنه سؤالٌ يعلم أنه لن يجد جواباً
ومع ذلك يستمرّ في السؤال.

عيناي يا سيدتي
ليستا عينين
بل نافذتان على احتراقٍ مؤجَّل
على ضوءٍ يعرف الطريق
ولا يجرؤ على الوصول.

أنا لستُ عاشقاً كما تظنين...
أنا أثرُ عاشق
ما تبقى من رجلٍ
حاول أن يفهم لماذا يتحول الحبّ
إلى شكلٍ من أشكال النجاة المؤلمة.

كلما اقتربتُ منكِ
ابتعدتُ عن نفسي أكثر
كأنكِ لا تختصرين في جسد
بل في اتساعٍ يبتلع تعريف الأشياء.

أيتها التي تسكنين احتمالي
هل تعلمين أنني كلما قلتُ "أنتِ"
تغير معنى اللغة في فمي؟

كأنكِ لستِ شخصاً ..
بل انزياحاً في الدلالة
كأنكِ الحدُّ الذي تفشل عنده الكلمات

وتبدأ منه الموسيقى.

أنا عابدُكِ القديم...
لكنني لم أعد أعبدكِ فقط
أنا أعبدُ السؤال الذي تركتِه فيّ
أعبدُ الغياب الذي علمني كيف أراكِ
دون أن أراكِ.

مرّت بي المدن...
وقالت لي: انسَ.
مرّت بي الوجوه...
وقالت لي: تجاوز.
لكنني كنتُ أتعلم منكِ
أن بعض الأشياء
لا تنسى كي تنسى
بل تنسى كي تستمرّ.

في كل مرةٍ أبتعد
أعود بشكلٍ مختلف
كأنكِ لا تحبّين الأشخاص
بل تحبّين تحولاتهم نحوكِ.

أيتها التي تشبهين الضوء حين يتردد
والجرح حين يلمع
والحقيقة حين تخجل من نفسها
أنا لم أصل إليكِ بعد...
لكنني لم أعد خارجكِ أيضاً.

أنا في المسافة بيننا ..
في ارتجاف الخطوة الأولى
في احتمال أن يكون الوصول
مجرد وهمٍ جميل.

وإن لم تأتِ ..

سأبقى هنا...
لا كمن ينتظر
بل كمن أصبح الانتظار نفسه.

فالحبّ يا سيدتي
ليس أن نصل
بل أن نظلّ في الطريق
دون أن نكذب على المسافة.

قبل الرحيل ...

كأننا على حافةِ الضوءِ نقف
لا نحنُ دخلنا النهارَ
ولا الليلُ اعترفَ بنا أبناءً له
نعلقُ أعمارنا على انتظارٍ طويلٍ
يشبهُ صلاةً بلا إجابة
ونمشي كأن الطريقَ
يكتبنا ثم يمحو أثرَ خطانا.

يا ربيعنا الذي يتأخرُ كلَّ عام
كأنه ينسى اسمه في دفاترِ الريح
يا موسماً يجيءُ ولا يكتمل
ويتركُ في صدورنا
أسئلةً أكثر من الأزهار
وشوقاً لا يثمر إلا وجعاً.

تعبنا من تنفسِ هذا الرماد...
من هواءٍ يمرّ بنا
كأنه لا يرانا
من مدنٍ تضعُ على وجوهها ابتسامةً من إسمنت
وتخفي تحتها
وجعَ الناسِ وهم يعبرونها
كظلالٍ بلا أسماء.

كفانا...
كفانا هذا التنفسَ الممزوجَ بالزيتِ والغبار
كفانا أن نعلق أرواحنا
على أعمدةِ انتظارٍ لا تصعد إلى السماء
كفانا أن نقنع أنفسنا
أن الصبرَ وطنٌ
وهو في الحقيقة
سجنٌ بطيءُ الإضاءة.

في الساحاتِ تماثيلنا واقفةٌ
تتعلمُ الصمتَ بإتقان
ترى كلَّ شيءٍ ولا تقول شيئاً
كأنها بقايا بشرٍ
خافوا أن يتحركوا
فتحجروا على هيئةِ شَبَهٍ بهم.

يا أيها الميدانُ...
كم مرةً وقفتَ وحيداً؟
وكم مرةً مرّت بك الهتافاتُ
ثم نامت عند قدميك
كأطفالٍ متعبين؟

نحن الذين علمتنا الحياةُ
أن الحلمَ لا يُمنح مجاناً
وأن العبورَ يحتاجُ قلباً
أكبر من الخوف
وأصابعَ لا ترتجفُ حين تلمسُ الباب.

فليأتِ الرحيلُ إذن...
لا كخسارة
بل كبدايةٍ متأخرة
كأن نغادرَ ضيقنا القديم
إلى اتساعٍ لم نختبره بعد.

وليأتِ موسمُ الحصاد
لا ليجمعَ ما زرعناه من تعب
بل ليكشفَ كم من الوهمِ
زرعناه بدل البذور
وكم من الصبرِ
كان تأجيلاً مقنّعاً للحياة.

سنكسرُ هذا الحصار...
ليس لأننا أقوى من الحديد

بل لأن الأرواحَ حين تتأخر كثيراً
تبدأ بتعلم الطيران
حتى من داخل الجدران.

أعرفُ جيداً...
أن السفن لا تضيع
إنما تتأخر
حتى تتعلم البحر
وأن الأمواجَ ليست عائقاً
بل سؤالاً
يختبر يقينَ العابرين.

نحن لسنا عابرين عاديين
نحن الذين يكتبون الطريق
ثم يمشون عليه
والذين إذا سقطوا
تحولت خطواتهم
إلى إشاراتٍ لغيرهم.

لا البحرُ يهزمنا
ولا الريحُ تطفئ أسماءنا
فنحن أبناءُ فكرةٍ
لا تموت بالسقوط
بل تتكاثر في كل سقوط.

يا ربيعنا المنتظر...
إن تأخرتَ أكثر
سنخترعك من وجعنا
ونزرعك في صدورنا
كي لا تهزم الفصول.

وسنمشي...
لا كمن ينتظر

بل كمن قرر أن يجعل من الانتظار
أرضاً جديدةً للعبور.

فالطريقُ لا ينتهي
بل يبدأ كلما ظنوا
أننا توقفنا.

نحن الذين لا نُهزم... بل نُمحى مؤقتاً

تعبرُ الريحُ حارتنا ..
كأنها لا تعرف أسماءنا ..
تلمسُ الغسيلَ المعلق على حبال الذاكرة
وتتركُ خلفها ارتجافاً خفيفاً
يشبهُ سلاماً لم يكتمل.

وتعبرُ الأيامُ من أعمارنا ..
كما يعبرُ غريبٌ مدينةً لا تنتمي إليه
تسرقُ منا ملامحنا ببطء
وتبدّل وجوهنا دون أن تستأذن الحنين.

لكن الأصدقاء...
لا يعبرون هكذا.
إنهم يمرّون فينا
كأنهم يزرعون آثارهم في اللحم لا في الأرض
يتركون بصماتٍ لا تمحوها الريح
ولا يجرؤ النسيان على لمسها.

على جدار القلب
تكتب أسماؤهم كوصايا مؤجّلة
وعلى جدار التاريخ
يتكدس حضورهم كضوءٍ لا يخفت
حتى لو أطفأته الحروب مراراً.

ومن حولنا...
يدور أخطبوط العالم
بأذرع تمتد من البحر الهندي
إلى سهولٍ لا تنام
ومن جبال طوروس
إلى الأزقة التي نسيت أسماءها
ومن الموصل وشنكال

إلى أربيل الذي يتعلم كل يوم
كيف ينجو من اسمه.

تمر لحظات...
وتنطفئ لحظات
كأن الزمن نفسه
يتردد في اتخاذ موقفٍ مناً.

لا أريد أن أعيش
على حساب أحد
ولا أن أتنفس من رئات الآخرين
ولا أن أستعير عمري من موتٍ لم أرتكبه.

أريد أن أموت بريئاً...
من كل هذا التشابك
من كل هذا الدم الذي ينسب إلينا
ثم لا يشبهنا
ومن هذا التاريخ
الذي يكتبنا كمتهمين دائمين.

أنا لستُ واحداً...
أنا جموعٌ تتقاطع في الجرح:
أنا من الهنود الحمر
حين كانت الأرضُ تتعلم أسماء سكانها قبل أن تُنهب.

أنا من كوباني ..
من ديرسم ..
من مهاباد ..
من شقلاوا ..
من بريتوريا ..
ومن تشيلي التي تعلمت البكاء واقفة.

أنا من كل أرضٍ
تعرفت على نفسها في المنفى

ومن كل ذاكرةٍ
حفرت كي تُمحى.

أكرهُ...
لا كحقدٍ أعمى
بل كرفضٍ واضحٍ للسرقة حين تتحول إلى نظام
لأن هناك من يسرق الأرض
كما يسرق الهواء من رئتي طفل
ثم يسمي ذلك "تاريخاً".

أكره الذين يكتبون العالم
بأقلامٍ مغموسةٍ بحقائب الآخرين
ويحكون عن الحضارة
كأنهم لم يمروا على الخراب قط.

نحن لا نطلب الكثير...
نطلب فقط أن نكون ظلالنا
أن نمرّ في الأرض
دون أن نحول إلى اتهام.

لكنهم...
كلما مررنا
حولونا إلى سؤال
وكلما تكلمنا
حولونا إلى خطر.

ومع ذلك نمشي...

نمشي لأن التوقف
ترفُ الملوك
ونحن أبناءُ الذين خسروا كل شيء
إلا الطريق.

نمشي...

وفي صدورنا خرائط لا ترسم
وفي عيوننا مدنٌ لا تموت
وفي أرواحنا
شيء يشبه الإصرار
الذي لا يشيخ.

وإن سرقوا الأرض...
فلن يستطيعوا سرقة اتجاهنا
وإن صادروا الجغرافيا...
فلن يصادروا الذاكرة.

فنحن لسنا هنا كي نُرى فقط
نحن هنا كي لا يكتمل النسيان.

هذا الجرحُ ما زال يناديني

لا تُغلقي عينيكِ...
فالطريق ما زال يناديني ..
فأنا ما زلتُ أتابعُ سفري الطويل
أمشي كما لو أن الأرضَ فكرةٌ مؤجَّلة
وكأنني أبحثُ عني
في خرائطَ لا تعترف بالوصول.

أبحثُ عن عالمٍ
خبّأه الزمنُ في عينيكِ
لا كمدينةٍ ضائعة
بل كاحتمالٍ نجا من الخراب
وككسرٍ خفيفٍ في جدار الحقيقة
يتسرب منه الضوء دون أن يرى.

يا اسماً يشبه ارتجافَ الريح
حين تمرّ على نافذةٍ لم تُغلق بعد...

هذا الدربُ الطويل ..
لا يسكنه غير الغياب
ومع ذلك أمشيه
كأنني أتعلم المشي من جديد
بعد كل سقوط.

لا وحدةَ ترافقني
بل كلماتكِ...
تسير بجانبي ككائناتٍ شفافة
تتوسّل للغد أن يكون أقلَّ قسوة
وتتوسّل لي أن لا أعود
كما غادرتني الخطوة الأولى.

في حذائي المهترئ ..

نشيجُ المطر لا يتوقف
يسري برداً في العظام
يُبطئني...
لا ليمنعني
بل ليعلمني
أن الطريق ليس استعجالاً
بل شكلٌ آخر من الألم.

أحياناً أشعر أن الأرض
تشدّ قدميّ إليها
كأنها لا تريدني أن أصل
أو كأنها تخاف أن أفهم
أن الوصولَ
ليس سوى اسمٍ آخر للفقد.

أتركُ عينيكِ خلفي...
لكنني لا أتركهما حقاً
أعلقهما على جدران الزمن
كنافذتين تنظران إليّ
كلما حاولتُ أن أهرب مني.

فيكِ...
كان هناك عالمٌ كامل
لم أستطع دخوله
لكنني عشتُ على حافته
أتعلم كيف يكون الإنسان
مخلوقاً بين الباب والعودة.

كم مرةً ظننتُ أنني ابتعدتُ؟
ثم اكتشفتُ أنني أدور حول اسمكِ
كما يدور القمرُ حول وهمه بالضياء.

كل الطرق التي سلكتها
كانت تعود إليكِ من جهةٍ أخرى

كأنكِ لستِ وجهةً
بل نظامُ الاتجاه نفسه.

رأيتُ المدن
تتبدّل في عينيّ
لكنها تبقى أنتِ
في هيئةٍ أخرى:
في نافذةٍ مضاءة
في صوتٍ يشبه المطر
في ظلٍّ لا أعرف لمن ينتمي
سوى لذاكرتي.

أنا لستُ مسافراً فقط...
أنا أثرُ مسافر
بقايا رجلٍ
أخذته الأسئلة أكثر مما أخذته الأقدام.

أحملُ في صدري
خارطةً لا تصل
وفي قلبي
تعباً يشبه الرجاء
وفي صوتي
ما تبقى من نداءٍ قديم
لم يُجب عليه أحد.

أتعثرُ...
لكنني لا أتوقف
لأن التوقف
يشبه الاعتراف بأن الطريق انتهى
وأنا لم أتعلم بعد
كيف أنتهي.

لا تُغلقي عينيكِ...
فربما ذات يوم ..

حين يهدأ هذا الخراب في داخلي
أعود لا كعائدٍ
بل كمن لم يغادر أصلاً.

أعود...
وأعرف أن الحب ليس وصولاً
بل احتمالُ أن نلتقي
دون أن نفقد أنفسنا في الطريق.

وقد أعود ذات يوم...
لا محمّلاً بالنصر
بل محمّلاً بكل هذا الغياب
الذي علمني
كيف أحبّكِ أكثر
حين لا أراكِ.

سرابٌ يكتبني

سرابٌ...
ولم يكن اسمُكِ
بل مرآتي حين ضلتْ عن وجهها
وكان خطايَ
حين نسيتُ كيف أعودُ إليَّ...

انتظرتُكِ...
منذُ أن كانتِ الأرضُ فكرةً في يدِ الغيم
ومنذُ كان الوقتُ طفلاً
يعدُّ نجومَهُ
قبل أن يتعلمَ العدَّ...

انتظرتُكِ ..
مئاتِ السنين ..
كي تطفئي في داخلي اشتعالَ الأسئلة
كي تمسحي عن قلبي
رمادَ الرغباتِ القديمة
كي ترسمي على جسدي
لوحتكِ الأبدية
حيثُ لا جسدٌ يبقى
ولا لونٌ ينجو
من معنى الفناء...

تعالي...
لنرجم الحزنَ معاً
بالحلمِ لا بالحجارة
لنخلعَ عن الزمنِ ساعتهُ الصدئة
ونمضي...
نحو زمنٍ
لا يقاسُ بالندم...

نحو أفقٍ لا يحدهُ موت
ولا يشيخُ فيه الانتظار...

كان السفرُ طويلاً...
كأنني أمشي في شريانِ الليل
وأنا الحالمُ
أهبطُ نحو عمقِ الأشياء
نحو تلك النقطة
حيثُ يسقطُ المعنى
ولا يسمعُ لهُ صوت...

وكنتُ—من دون انتباه—
أذوبُ فيكِ
كأنني ظلٌّ
نسيَ صاحبهُ
في منتصف الطريق...

يا حزينةً ..
كأنكِ تعرفين النهاية
قبل أن نبدأ...

ويا غريبةً ..
كأنكِ لا تبالين
بهذا الانهيارِ الهادئ...

تلاشتِ الأفكار...
لا لأنها انتهت
بل لأنها تعبتْ من البقاء
واندمجتْ ببؤسِ السنين
كما تندمجُ الأمواجُ
في ذاكرةِ البحر...

وأنا—
أنا الذي ولدتُ من صمتِ الحجارة

من سلالةِ الصخور
التي لا تعرفُ البكاء
إلا حين تكسَر...

حين ولدتُ ..
كان أبي يبكي...
كأنهُ رأى مستقبلي
قبل أن أراه...

وكانت أمي تضحكُ للسحاب
كأنها تقولُ له:
خذ هذا الطفل
وأعِدْهُ
حين يفهمُ معنى الغياب...

غنّيتُ...
للسجّانِ الحائر
للبحارِ التي هجرتها السفن
للأبوابِ التي نسيت أسماءَ الداخلين...

غنّيتُ ..
لأن الغناء
هو الطريقُ الوحيد
كي لا أموتَ دفعةً واحدة...

غنّيتُ للطيور
التي لا تسألُ عن الحدود
للنورِ حين يتعبُ من نفسِه
للظلمةِ حين تكتشفُ
أنها ليست عدواً لأحد...

وغنّيتُ...
للبساتينِ التي لم تحتفلْ يوماً
لأشجارٍ

كبرتْ
دون أن تعرفَ معنى العيد...

غنّيتُ...
كأنني أكتبُ وصيّتي
على هواءِ المساء...

لكنكِ...
كنتِ سراباً
وكان الحلمُ
أكثرَ واقعيةً منكِ...

فكلما اقتربتُ
ابتعدتِ—
كأنكِ فكرةٌ
تخافُ أن تفهم...

الآن...
أعرفُ أنني لم أكن أنتظرُكِ
بل كنتُ أنتظرُ نفسي
في هيئةِ امرأة...

وأعرفُ...
أن الحزنَ
ليس ما نرجمه
بل ما يعيدُ تشكيلنا
كلَّ مرة
كأننا نولدُ من جديد...

فخذيني—إن شئتِ—
إلى نهايتكِ
أو اتركيني
في بدايتي...

فأنا...
ما عدتُ أفرّقُ
بين الطريقِ
والضياع...

ولا بينكِ
وبين هذا السراب
الذي
يكتبُني...

وصايا الظلّ لإيلين

إيلين...
لا تكثري من الضحك
فالنهارُ هناك
يبكي نفسهُ ليلاً
ويخبّئُ دموعهُ
في جيوبِ الغروب...

لا تضحكي—
فالضحكُ العالي
قد يوقظُ الحزنَ
من سباتهِ الطويل
وقد يجرحُ قلباً
لم يتعلم بعدُ
كيف يسامحُ الضوء...

إيلين...
اخفضي صوتكِ قليلاً
لا ترفعيه غناءً
فالموتى نائمون
تحت هذا الترابِ الخفيف
يسترقون السمعَ
لأغنيةٍ تشبهُ الحياة
ويرتجفون...

لا توقظيهم—
فقد تعبوا
من الانتظار ..
ومن خيباتِ القلب
ومن أبوابٍ
لم تفتح لهم
إلا على الفراغ...

إيلين...
لا تكثري الكلام ..
فالكلمةُ خبزُ الغد
والصوتُ—
إذا أُهدِر اليوم—
جاعَ في فمِ الحقيقة...

دعي الكلماتِ
تنضجُ كثمارٍ حزينة
ولا تقطفيها
إلا حين تمتلئُ
بمعنى النجاة...

إيلين...
لا ترتدي الثراء
فثمّة من يمشون عراةً
تحت شمسٍ لا ترحم
يحملون جلودهم
كأنها أوطانٌ مؤقتة...

ثمّة أطفالٌ
يلبسون الغبار
ونساءٌ
يخِطن الليلَ
برداءٍ من صبرٍ ممزّق...

فكوني—إن استطعتِ—
ظلاً خفيفاً
يمرُّ على تعبهم ..
ولا تكوني نافذةً
تطلُّ على جوعهم
من علٍ...

إيلين...
لا أُوصيكِ بالحزن ..
لكنّي أخافُ عليكِ
من الفرحِ الأعمى...

فالفرحُ الذي لا يرى
أقدامَ المتعبين
قد يتعثّر
بأولِ صرخةٍ في الطريق...

إيلين...
إذا مررتِ
بمدينةٍ تنامُ على الخوف
فلا تسأليها
عن أسماءِ الشهداء
فالأسماءُ هناك
تدفنُ مرّتين:
مرّةً في التراب
ومرّةً في النسيان...

وإن رأيتِ نافذةً
تبكي ..
فاقتربي منها—
فلعلها عينٌ
لم تجدْ
من يُصغي إليها...

إيلين...
الحياةُ ليست أغنية
لكنها
تحاول أن تكون...

فغنّي—
بصوتٍ

يشبهُ الصلاة ..
يشبهُ يداً ..
تمسحُ رأسَ العالم...

غنّي—
كأنكِ تجمعين
شظايا الروح
لا كأنكِ
تنسينها...

إيلين...
أنا ابنُ هذا الغبار
تعلمتُ
أن أمشي على وجعي
كأنهُ أرضٌ مألوفة...

وتعلمتُ
أن أزرعَ في صدري
شجرةً من صمت
كي لا أسقطَ
حين تعصفُ بي الذكريات...

وأعرفُ—
أن الضحكَ
قد يكون خيانةً صغيرة
إن لم نقاسِمهُ
مع من لا يملكونه...

إيلين...
حين تضحكين ..
تذكري
أن هناك قلباً
يحاول أن يتذكر
كيف كان يضحك...

وحين تُغنّين
تذكري
أن هناك صوتاً
انكسر
قبل أن يبلغ فمَه...

وحين ترتدين النور
تذكري
أن هناك من
لم يجد ظلَّهُ بعد...

إيلين...
لا تخافي من الحزن
فهو ليس عدوكِ
بل مرآةٌ
تُريكِ ما لا يُرى...

لكن لا تقيمي فيه طويلاً
كي لا تتحولي
إلى ظلٍّ آخر
في حكايةٍ بلا نهاية...

إيلين...
إذا تعبتِ ..
تعالي إليّ—
سنقسمُ الصمتَ بيننا
كما يقسمُ الخبز ..
وسنعيدُ ترتيبَ العالم
بقلبين
لا يعرفان
إلا الانكسار...

إيلين...
قولي للحياة:

لسنا كاملين ..
لكننا نحاول...

وقولي للموت:
لسنا جاهزين ..
لكننا نعرفك...

وقولي لنفسكِ:
يكفي أن تكوني
إنسانةً
تسمعُ بكاءَ النهار
حين يصيرُ ليلاً...

إيلين...
لا تكثري من الضحك...
لكن—
لا تتوقفي عن الحلم.

أشتاقُ إليكِ...

في كلِّ الأوقاتِ أشتاقُ إليكِ ..
لا كعابرٍ يلوّحُ للغيابِ ثم يمضي
بل كجذرٍ عالقٍ في أرضٍ عطشى
ينتظرُ المطرَ...
ولا يدري أالمطرُ وعدٌ
أم خديعة.

أشتاقُ إليكِ ..
كجبلٍ قائمٍ خلف ظهري
لا أراهُ...
لكنني أشعرُ بثقلهِ
في انحناءةِ روحي ..
في ارتجافِ خُطايَ ..
وفي كلِّ محاولةٍ للهربِ منكِ
أعودُ إليكِ ..
كمن يصعدُ نفسَهُ
ولا يصل.

وأشتاقُ إليكِ ..
كجيشٍ عرمرمٍ يتدرّبُ على صدري
كلُّ دقةِ قلبٍ
صفٌّ من الجنود
وكلُّ تنهيدةٍ
طلقةٌ طائشةٌ
تبحثُ عني فيَّ...

أشتاقُ إليكِ ..
كأنني ولدتُ ناقصاً
وكأنكِ الاسمُ الذي سقطَ من فمي

حين تعلمتُ النطق
والملامحُ التي نسيها وجهي
حين تعلمَ أن يكونَ غريباً.

يا أنتِ...
كيف استطعتِ أن تكوني
كلَّ هذا البُعد ..
وكلَّ هذا القرب؟
كيف صرتِ وطناً
يؤلمني اللجوءُ إليه
كما يؤلمني الخروجُ منه؟

أنا لا أشتاقُ إليكِ
كما يشتاقُ العشّاقُ في الأغاني
بل أشتاقُ إليكِ ..
كما يشتاقُ المنفيُّ إلى اسمِهِ الأول
كما يشتاقُ الليلُ
إلى نجمةٍ واحدةٍ
تثبتُ أنه لم يخلق عبثاً.

أشتاقُ إليكِ ..
حين أفتحُ نافذتي
فلا يدخلُ الهواء
حين أكتبُ
فلا تتكونُ الجملة
حين أنامُ
فلا يكتملُ الحلم...

كأنكِ الفكرةُ التي تؤجّلُ نفسها
كي تبقي قلبي يقظاً ..
وكأنني السؤالُ
الذي خُلِقَ
ليبقى بلا جواب.

أشتاقُ إليكِ ..
كمن يحملُ صوتهُ في يديه
ولا يجدُ فماً يناديكِ به
كمن يرى ظلَّكِ
في كلِّ امرأةٍ
ثم يعتذرُ من ظلِّهِ.

يا أنتِ...
يا فائضَ الغياب ..
يا ضيقَ الحضور
يا ما بينهما
من هاويةٍ
أسكنُها دون أن أسقط...

أشتاقُ إليكِ ..
لأنني لا أملكُ طريقةً أخرى
لأكون ..
ولأنكِ
كلما ابتعدتِ
ازددتِ اقتراباً
من ذلك المكانِ الخفيّ
الذي لا يسكنهُ أحدٌ سواكِ.

أشتاقُ إليكِ ..
حتى صار الاشتياقُ
اسمي الآخر
وصرتُ أخافُ—
إن التقيتُكِ—
أن أفقدَ هذا الألم
الذي يثبتُ
أنكِ ما زلتِ هنا...

في صدري ..
كجيشٍ لا يتعب
وكجبلٍ لا ينهار.

أين دمي
يا رائحة الدردار؟

أنا ابنُ صمتِ الجبال
حين ولدتُ
كان أبي يخبِّئُ دمعهُ في التراب
وأمي تلوّحُ للغيم
كأنها تُعيدني إلى السماء...

أنا من زمنٍ
تعبت فيه البحارُ من انتظارِ السفن
ومن مدنٍ
تنامُ على كتفِ السجّان...

أما أنا—
فأغني...
لطيورٍ لا تعرفُ القفص
لنورٍ يضيعُ في عتمته
ولظلمةٍ تحلمُ بأن تُرى
ولبساتينَ
كبرت بصمتٍ
دون أعراسٍ
ولا طبول...

تصميم الغلاف: يشار أراغون